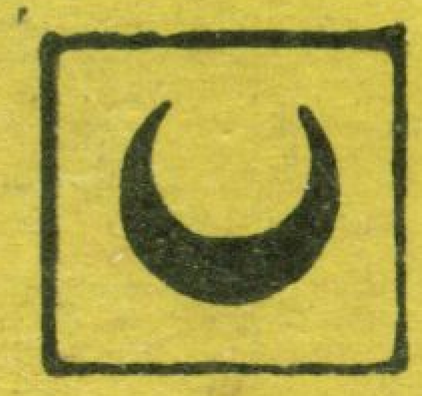
جرمينال

اميل زولا



روايات الهلال

روائع القصص العالمي

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

رئيس التحرير: طاهر الطناحي

العــدد ١٩٧ ✻ مايو ١٩٦٥ ✻ محرم ١٣٨٥

No. 197 — Mai 1965

بيانات ادارية

ثمن العدد : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان ٨٠ مليما ـ عن الكميات المرسلة بالطائرة : فى سوريا ولبنان ١٠٠ قرش سورى لبنانى ـ فى الاردن والعراق ١٠٠ فلس ٠

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة ٨٥ قرشا صاغا ـ فى السودان ٨٥ قرشا سودانيا ـ فى سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا لبنانيا ـ فى بلاد اتحاد البريد العربى ١١٠ قروش ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ـ فى سائر انحاء العالم ٣٠ شلنا

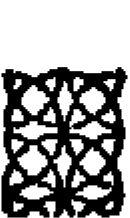
والاشتراكات تسدد لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية ـ وفى الخارج بتحويل مصرفى على أحد بنوك القاهرة ٠

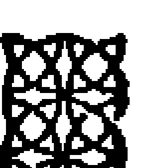
سعر البيع للجمهور : قطر والبحـــرين ٣٢ آنة ، ليبيا : بنغازى ١٤٠ مليما وطرابلس ١٥٠ مليما ، الجزائر

تكا

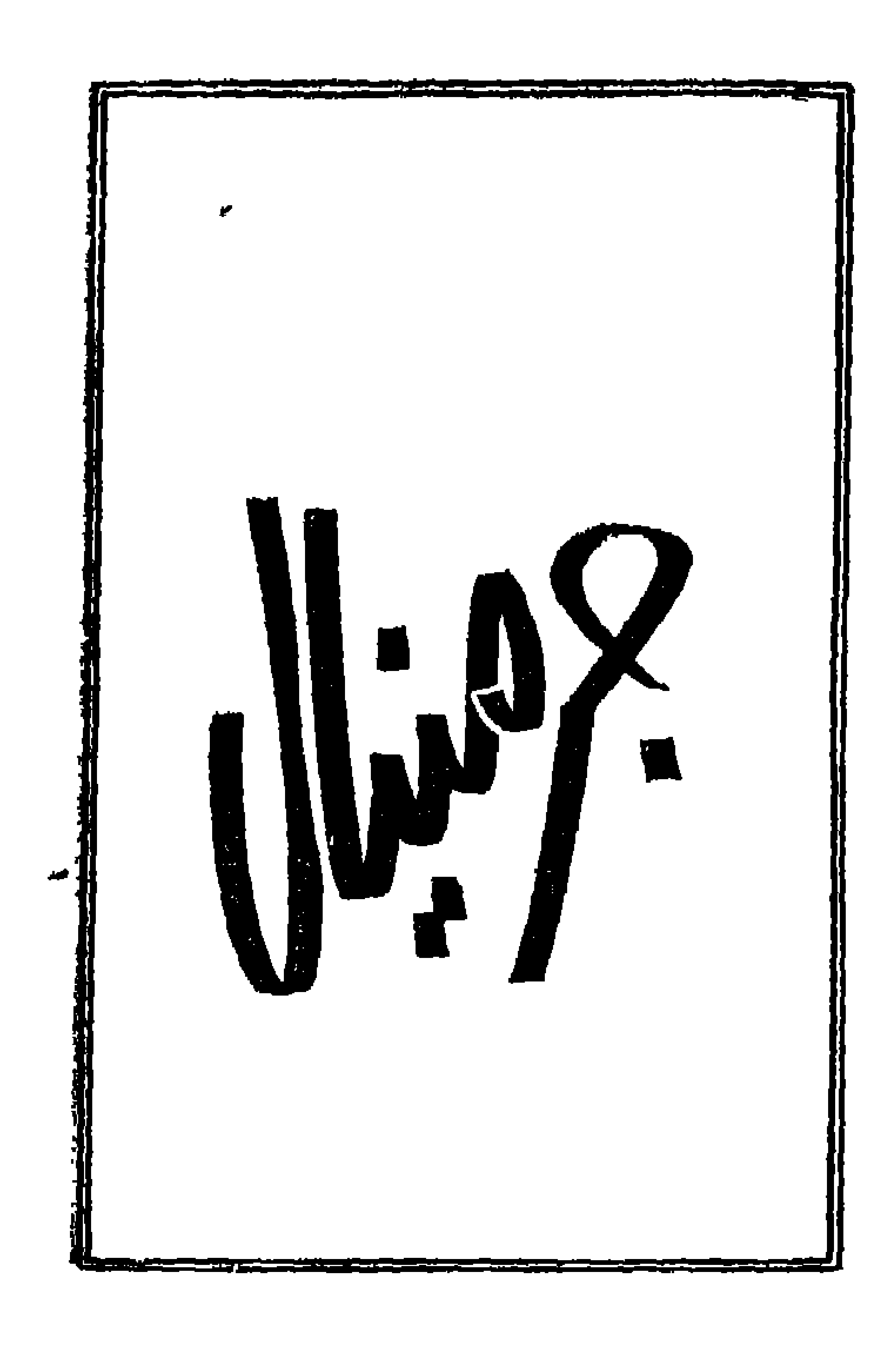
عمحمد عز العرب ـ القاهرة

عشرة خطوط)



مجلة شهرية لنشر القصص العالمى



بقلم

اميل زولا

ترجمة وتلخيص

سعد مكاوي

تقديم

كان « اميل زولا » فى صميمه جمهوريا معتدلا ، ولم تكن السياسة تعنيه كقاعدة لعمله الأدبى .. لكنه كان انسانا صادقا مع نفسه ، ومؤمنا بأن لكل عصر فنه ، وأن على كل فن جديد أن يغمر جذوره فى تربة عصره ..

و « جرمينال » عمل أدبى جليل يعتبره الكثيرون من النقاد قمة أعمال هذا الكاتب الكبير الذى حرك أعماق عصره ، وكان زعيم مدرسة أدبية كبيرة ، ورائد آفاق جديدة ، والمصور الذى لا يجارى للجماعات فى عصره . ورغم القسوة والمرارة التى تفيض بها صفحاته الغزيرة ، فان عمله الأدبى كله يشهد بأنه الأديب الذى التزم كل ما يلتزمه رجل العلم ـ وهو يقوم بتجربة معملية ـ من موضوعية وأمانة دقيقة ونزيهة ، كى يقيم دعائم عمل أدبى ثورى ، كما يشهد بأنه آمن دائما بمستقبل الانسانية ، ومجد فرحة الحياة وعمل الانسان ، وربط الأدب بقضية المستقبل

ولأول مرة فى تاريخ الأدب ، ومن تصوير كاتب جمهورى لا اشتراكى ، لم يكن « البطل » فى رواية فردا أو أفرادا ، بل كان بطلا جماعيا هو جمهور عمال المنجم ، ولأول مرة ينهض كاتب ليسم بالحديد المحمى مجتمعه الذى يسمح بمثل هذا الظلم ، مما يجعل « جرمينال » التى صور فيها اضراب عمال المناجم فى أحد أقاليم فرنسا احتجاجا على مظالم الشركة المستغلة عملا فريدا فى الأدب الفرنسى ، كما أنه فريد فى انتاج « زولا » نفسه

وقدم زولا (١٨٤٠ ــ ١٩٠٢) لهذا الموضوع الذى لم يعالجه الأدب قبله بقوله : « أردت بروايتى جرمينال أن تكون دراسة بيئة وفى الوقت نفسه تحليلا اجتماعيا ، وأريد منها أن تتنبأ بالمستقبل وتثير المسألة التى ستكون أهم مسائل القرن العشرين ... »

واذا كان قد آثر أن يظل محايدا ازاء كل الطبقات الاجتماعية التى يدرسها ويشرحها ويعرضها ، فان عداءه واضح لكل المستغلين والجامدين والمتحذلقين والامخاخ الفارغة والقلوب الجافة .. اذا كان يقول : « ليس هدفى أن أقيم أو أدافع عن سياسة أو عقيدة ، فانى مجرد ملاحظ ومحلل ، بغير موعظة .. واذا كان واجب روايتى جرمينال أن يكون لها نتيجة ، فستكون هذه هى النتيجة : قول الحقيقة الانسانية ... والحرية متروكة بعد ذلك لمن يريد استخلاص النتائج من عملى » فلقد استطاع بمنهجه هذا وبحبه للانسان وللحرية ، خلال ربع قرن ، يوما بعد يوم ، وطوبة بعد طوبة ، أن يقيم أحد الصروح العملاقة فى الأدب الانسانى ...

لقد تسلم « المنهج العلمى » الذى يدرس كل الناس فى البيئة التى يتحركون فيها دراسة منهجية ، والذى يجعل مهمة الروائى « الواقعى » شبيهة بمهمة العالم « الطبيعى » ، أى قائمة على الملاحظة والاستقصاء والتحليل والتصنيف ، تسلم هذا الاتجاه الذى كان قد بدأ يتضح فى عصره ، وطبقه فى رواياته بقوة ذاتية تركت أثرها فى فن الرواية فى العالم ، وكان هو الأديب الذى ميز الملامح النوعية لعصره وفهمها ، وأدرك العناصر الجديدة التى تبزغ للأدباء من معامل العلماء ومن قوانين الانتخاب الطبيعى وحقائق الوراثة والكون كله ، كما آمن بأن القوانين العلمية التى تحدد مأساة الانسان وتفسر أنينه ودمه النازف تأخذ مكان قدرية القدماء وقواعد التراجيديا اليونانية التى تستلهم غضب الآلهة

لقد كف الانسان عن أن يكون لغزا .. لقد مزق العلم كل الحجب ، فليتبعه الأدب .. على الكاتب أن يستخدم قلمه كالمبضع ، يرخى العنان لخياله ، بل باحثا ومستقصيا ومبشرا !

بهذه الروح ، وهذا الفهم ، بدأ « زولا » تفكيره فى عمل أدبى ضخم يسيطر على النصف الثانى من القرن التاسع عشر كله ، يكون الخيط الأساسى فيه هو منطق الوراثة ، أما الاطار فهو مجتمع الامبراطورية الثانية .. وباريس التى سيصفها فى هذا العمل الكبير ليست باريس « جان فالجان » بطل رواية « البؤساء » ، فلقد مرت ثلاثون سنة من التطور الصناعى والاجتماعى غيرت الأوضاع والقيم والناس

... فى « البؤساء » ينهض « الانسان » من كبوته بالندم والتكفير الارادى ، ، اما انسان زولا فهو ابن عصره الشاحب الضامر الذى يقوم الكحول فيه بمهمة التسميم والابادة الجماعية ، لأنه انسان الأدب الذى يتكلم لغة العصر ويحترق بحمياته ويكشف آماله وعذاباته ويقود معاركه ..

وقد ظهر هذا العمل الضخم فى عشرين جزءا بعنوان واحد : « روجون ماكار ـ التاريخ الطبيعى والاجتماعى لأسرة تحت حكم الامبراطورية الثانية » ... وتوالى فى الأجزاء العشرين ظهور نفس الأشخاص فى حكايات منفصلة لكل منها نهايتها الخاصة ، لكنها مرتبطة فيما بينها برباط قوى يجعل منها «كلا» واحدا وواسعا ...

و « جرمينال » هى الدرة اللامعة فى هذا العقد الكبير الذى بدأه كاتبه وعمره ثمان وعشرون سنة ، وانتهى منه فى عامة الثالث والخمسين ...

سعد مكاوى



ـ ١ ـ

فى السهل الأجرد ، تحت سماء بلا نجوم ، فى سواد الحبر وكثافته ، كان رجل وحيد يقطع الطريق الكبير من « مارشيين » الى « مونتسو » ، عشرة كيلو مترات مرصوفة مستقيمة خلال حقول البنجر ، وأفق رحب مسطح كنست لسعات رياحه الباردة فى طريقها مستنقعات وأراض عارية .. وما من ظل شجرة ، بل الطريق يمضى مستقيما ، وسط عماية السماء الضبابية المظلمة ..

وكان الرجل قد غادر « مارشيين » فى نحو الساعة الثانية ، وكان يمشى بخطوة واسعة وهو يرتعش تحت سترته وبنطلونه اللذين رق قطنهما ، ضائقا بربطة صغيرة معقودة فى منديل ذى مربعات ، يضغطها بكوعه وهو دافس فى أعماق جيوبه يدين خدرهما البرد وأدمتهما سياط الرياح ، وفكرة واحدة تشغل ذهنه ، الأمل فى أن تخف حدة البرد بعد شروق النهار ..

وفى الخلاء ، قبل « مونتسو » بكيلو مترين ، لمح عن شماله ثلاث نيران حمراء تتوقد وكأنها معلقة فى الفضاء ، فتردد مدى لحظة ثم لم يستطع مقاومة الحاجة المؤلمة الى تدفئة يديه ..

وكان عن يمينه سياج .. شبه جدار من ألواح ضخمة تقفل سكة حديدية ، وعن شماله مرتقى معشب تعلوه سقوف غامضة فى الضباب ، رؤيا قرية ذات سقوف خفيضة ومتشابهة .. فلما بلغ منعطف طريق عاد فرأى النيران بالقرب منه ، دون أن يفهم سر احتراقها على هذا العلو فى السماء الميتة ، كأنها أقمار مدخنة .. ثم رأى كتلة المبانى يبزغ منها قوام مدخنة مصنع ، وأضواء نادرة تخرج من النوافذ المتسخة ، وخمسة أو ستة مصابيح حزينة معلقة فى الليل والدخان كان يرتفع صوت تنفس ضخم من نفثات بخارية لا ترى ...

وفى استحياء العامل المتعطل الذى لا يجد مأوى ، غامر أخيراً بارتقاء المرتفع الذى كانت تتوقد فوقه نيران الفحم الثلاث ، وهناك رأى عمالا يدفعون عربات فتتلقاها ظلال حية أخرى فتقلب ما فيها من الفحم بالقرب من النار ...

ودنا من أحد المواقد ، وحيا عاملا عجوزا من سائقى العربات كان واقفا فى ثوب من الصوف المشغول وعلى رأسه طاقية من جلد الأرنب ، بينما ينتظر حصانه الكبير الأصفر ـ فى جمود حجرى ـ أن تفرغ العربات الست التى صعد بها ، أما العامل الثانى فكان يعمل فى قلب العربات ببطء يتفق مع نحوله ، فهو يضغط على العتلة بيد نائمة .. وفوق هذا العمل الليلى تعصف الرياح المثلجة ، فيمر لهاثها الضخم المنتظم مثل ضربات المناجل

ورد العجوز التحية وسكت ، وهو ينظر الى الشاب الغريب فى حذر ، فبادر هذا بذكر اسمه :

ـ اسمى « اتيين لانتييه » ... ألا يوجد عمل هنا ؟ ..

وأضاءته اللهب فبدا أسمر وجميلا ، فتى فى نحو الحادية والعشرين ، متين البنيان على دقة أعضائه ...

ـ عمل ؟ .. لا ، لا .. أمس فقط تقدم اثنان آخران .. لا يوجد شىء ! ..

وهزت العجوز نوبة سعال عنيفة خنقته ، ثم بصق فتركت بصقته أثرا أسود على الأرض المتضرجة بلون اللهب ..

وكانت العربات الست قد أفرغت ، فتبعها ـ دون ضربة سوط ـ وساقاه متيبستان من الروماتيزم ، بينما تحرك الحصان وحده فى عاصف من الريح يقشعر له شعره ..

وتأمل « اتيين » المكان وهو يدفىء يديه الداميتين ، وفكر فى الأيام الثمانية التى مرت عليه وهو يبحث عن عمل ، واستعاد موقفه فى ورشة السكك الحديدية وهو يصفع رئيسه فيطرد ، وخروجه من مدينة « ليل » ووصوله الى « مارشيين » فى يوم السبت حيث لم يجد العمل الذى قيل انه كان مطلوبا فى مصنع الحديد ، ويوم الأحد الذى قضاه مختبئا تحت أخشاب فى فناء ورشة نجارة ، والحارس الذى طرده منها فى قلب الليل ، بلا شىء ، بلا كسرة خبز .. !

وأعلن سعال حاد عودة سائق العربات ، ثم رآه يخرج ببطء من الظلمة ووراءه الحصان الأصفر يجر ست عربات جديدة ، فسأله الشاب :

ـ هل توجد فبريكات فى مونتسو ؟

وبصق العجوز بصاقه الأسود قبل أن يرد :

ـ النقص ليس فى « الفبريكات » لكن الحالة سيئة فى البلد ، والناس يطردون ، والمصانع تغلق أبوابها الواحد بعد الآخر .. ربما لم تكن هذه غلطة الامبراطور ، لكن لماذا يذهب ليحارب فى أمريكا ؟ .. هذا اذا لم نذكر أن الماشية تموت مثل الناس من الجوع !

وفى عبارات قصيرة وأنفاس متقطعة طاب جو التشاكى ، فروى الشاب أيضا سعيه العقيم منذ أسبوع ، وقال انه يتصور الطرق وقد زحمها المتسولون والناس لا يطلبون غير الخبز .. ثم اختفى صوتاهما فى زوبعة حملت الكلمات فى زئيرها الكئيب ..

وعاد العجوز يقول ان مصنع سكر فوفيل فى مونتسو لا يزال يشتغل ، لكن مصنع سكر هوتون أجرى تخفيضا فى عدد موظفيه ، ثم بصق وتحرك وراء حصانه النعسان ..

وعندما ظهر مرة أخرى عاد الى الثرثرة :

ـ أنا من مونتسو واسمى « بون مور » (الموت الطيب !) .. انتشلونى ثلاث مرات من قاع المنجم ورأوا أنى لا أريد أن أموت فدعونى « الموت الطيب » على سبيل الضحك !

كانت النار الآن تضىء شعره الأبيض النادر فى رأسه الضخم ووجهه الساكن الشاحب الأغبر ، المبرقش ببقع مزرقة ..

كان ضئيلاً .. عنقه كبير ، وذراعاه طويلتان ، تسقط منهما يداه الى مستوى ركبتيه ..

ومثل حصانه الذى يظل فى وقفته جامداً دون أن يبدو عليه أنه يعانى من الرياح المعولة ، كان الرجل يبدو من حجر لا يمسه البرد ولا الزوابع المصفرة فى أذنيه ...

ـ هل تشتغل فى المنجم منذ وقت بعيد ؟

ـ آه ! نعم ! ... لم أكن بلغت الثامنة عندما نزلت فى المنجم ، وعمرى ثمان وخمسون سنة فى هذه الساعة ، لقد زاولت كل صنوف العمل تحت الأرض حتى شكوت من ساقى ، وقال طبيب

الشركة منذ خمس سنوات أنى لم أعد أصلح للعمل « تحت » ومن يومها أسوق هذه العربات هنا ... ويقولون لى : استرح ، وأنا لا اريد ان اعتزل قبل ان ابلغ الستين ، فأنال معاش المائة والثمانين فرنكا ، فانهم اذا تقاعدت اليوم يعطوننى فى الحال معاش المائة والخمسين فرنكا .. هم مكارون .. ثم انى متين ، فيما عدا الساقين .. انه الماء الذى رشح تحت جلدى من طول ما اشتغلت « تحت » ... هناك أيام لا أستطيع فيها تحريك قدمى دون أن أصرخ .. !

وقطعت كلامه نوبة سعال جديدة ، وسأله الشاب :

ـ وهذا يجعلك تسعل هكذا ؟ ..

فجاء الرد حركة بالرأس عنيفة فى تعبيرها عن النفى ، قبل أن يقوى على الكلام :

ـ لا .. لا .. كان فى البداية زكاما ، لكن العجيب هو أنى أبصق فحما .. مع أنى من خمس سنين لم أضع قدمى « تحت » فان عندى من الفحم فى هيكلى ما يدفئنى الى آخر أيامى !

وصحت ذكرياته فتكلم عن أسرته التى تشتغل كلها فى شركة مناجم مونتسو منذ ١٠٦ سنة ، الصغار بعد الكبار ، لصاحب العمل نفسه ... والشركة غنية وعندها ملايين ، ولم يعد أحد يحصى غناها ! .. انها تضم تسعة عشر منجما وعشرة آلاف عامل ، وتستخرج كل يوم خمسة آلاف طن من الفحم ، وتملك سكة حديدية تربط جميع المناجم وورشا عديدة .. والمدير العام هو السيد « هينبو » ..

ـ هذا موظف ، لكن لمن كل هذا ؟

ـ لمن كل هذا ؟ .. لا يدرى أحد ! ... انه لناس ! ...

واكتسى صوته وهو يقول هذا بمسحة من خوف دينى الطابع ، كما لو كان قد تكلم عن محراب عزيز المنال يستتر فيه الاله المتخم الذى صلت له أسرته أكثر من قرن ، وقدموا القرابين من لحومهم دون أن يكونوا قد رأوه مرة ! ..

وتحرك الحصان فاختفى العجوز وراءه ، وظل العامل الشانى متكوما أمام النار وذقنه مدفونة بين ركبتيه ، محدقا بعينيه الكبيرتين المنطفئتين فى الفراغ ..

ولا فجر يشق بياضه السماء الميتة ، وليس هناك الا منجم « فورو » هذا الرابض كالحيوان الشرس النهم ليفترس العالم ، وهو يتنفس لاهثا فى هضمه لما يأكله من اللحم البشرى ...

— ٢ —

في وسط حقول القمح والبنجر كانت المجموعة ٢٤٠ من مساكن العمال تنام تحت ليلها الاسود ، كتل أربع كبيرة من بيوت صغيرة متساندة ، هندسية ومتوازية ، كأنها ثكنة أو مستشفى ، تفصلها الشوارع الثلاثة العريضة المقسمة الى حدائق متساوية

وفى بيت العامل « ماهوى » فى رقم ١٦ من الكتلة الثانية ، لم يكن يتحرك شىء قبل أن تدق ساعة الحائط فى الطابق الاول أربع دقات ، فكل من فى البيت كان منسحقا من التعب ونائما وفمه مفتوح ..

لكن « كاترين » كانت بحكم العادة أول من تنبه من خلال السقف الى الدقات الاربع ، فجلست فى مرقدها وأوقدت شمعة نشرت ضوءها فى حجرة مربعة تملؤها أسرة ودولاب ، ومنضدة وكرسيان، وملابس معلقة فى مسامير ، وجرة موضوعة فوق البلاط بالقرب من حوض فخارى أحمر للاغتسال .. وفى السرير الايسر « زخارى » ابن الاسرة البكر ، وهو شاب فى الحادية والعشرين ، وأخوه الصغير « جانلان » الذى يتم عامه الحادى عشر .. وفى السرير الايمن طفلان هما « لينور » فى سنتها السادسة و « هنرى » فى سنته الرابعة ، وهما ينامان أحدهما فى ذراعى الآخر .. بينما كانت « كاترين » تقتسم السرير الثالث مع أختها « الزير » الهزيلة بالنسبة لاعوامها التسعة ، ذات الحدبة فى ظهرها .. ومن باب الحجرة المفتوح كان يتبدى صحن السلم والملحق الذى يشغله الاب والام بسريرهما الرابع ، ويلصقان به مهد آخر ذريتهما « استيل » التى لم تكد تبلغ ثلاثة أشهر ..

وكانت « كاترين » فى عامها الخامس عشر ، لكنها ظلت تتمطى فى اعياء وهى جالسة فى فراشها حتى وصلتها من بسطة السلم همهمة أبيها التى ترميها بالكسل ، فمشت بقميصها حافية القدمين فى

الحجرة ، وعندما مرت أمام سرير الصغيرين ردت الغطاء فوقهما ، على حين كانت « الزير » الحدباء تستدير وهى مفتوحة العينين لتأخذ المكان الدافىء الذى تركته أختها الكبرى •• وأمسكت « كاترين » أخاها الكبير « زخارى » من كتفه وهزته وكشفت الغطاء وهى تضحك من ولدين يتخبطان ويلوكان الشتائم وسيقانهما عارية •• وجلس « زخارى » النحيل وفى وجهه الطويل طابع الاسرة كلها من الشحوب الانيمى ، أما « جانلان » فقد وثب وعضها فى ثديها الايمن ، فحبست الصرخة وشتمت الولد وهى تضعه على الارض ••

وعند حوض الاغتســـال انفجر شجار آخر بين الاخت وأخويها ، وطارت قمصان النوم بلا حياء ، وبالسهولة المطمئنة لقطيع من كلاب صغيرة نشأت معا ••••

ومثــل أخـــويها لبست « كاترين » بنطلون عامل المنجم وسترته وصارت لها هيئة رجـل صغير ، ولم يتبق لها شيء من جنســـها غير تبختر الردفين الخفيف •• وذكروا جدهم « الموت الطيب » الذى يعمل بالليل وينام بالنهار ، ولم يكن يبرد سريره ، اذ كان فيه دائما مـن يرتفع شخيره !

ومن وراء الحائط وصلت ضجة ، فلقد قضى تقتير الشركة أن تكون الجدران بين هذه المساكن رقيقة تخترقها الهمسات ، فكانوا يعيشون من طرف المساكن الى طرفها الآخــر والكوع فى الكوع ، فلا شيء من الحياة الخاصة كان يظل مستورا ، حتى عن الاطفال ••••

وقالت البنت عندما سمعت تلك الضجة وراء جدار الجار :

ــ هذا « ليفاك » ينزل ، فــلا يلبث « بوتلو » أن يذهب الى مـدام « ليفاك » !

كل صباح كانوا يتسلون هكذا بالثالوث ، الزوج والزوجة والعامل الآخر الذى يسكن عندهما ، والذى يشتغل ليلا ويملأ البيت نهـارا ، عندما يكون الزوج فى العمل ••••

وعادت « كاترين » تقول :

ــ هذه « فيلومين » تسعل !

وكانت فى هذه المرة تتكلم عن ابنــة « ليفاك » الكبرى التى لم تتم التاسعة عشرة حتى كانت قد صارت عشيقة « زخارى » ولها منه حتى الآن ولد وبنت ، وهى ضعيفة الرئتين •••• والناس كلهم يعرفون !

صحت الاسرة كلها الا الأم لم تبرح فراشها ، ولم يكن يبدو منها من تحت الغطاء غير وجه مستطيل بملامح كبيرة وجمال ثقيل غيرته تسع وثلاثون سنة من حياة البؤس ، وسبع ولادات ..

ونزل الاب « ماهوى » وولداه « زخارى » و « جانلان » فوجدا « كاترين » منشغلة باحياء النار فى الموقد الحديدى ، وكانت نفاية الفحم الصلب التى توزعها الشركة تشتعل بصعوبة فى صالة واسعة تشغل الطابق الارضى كله ، بها بوفيه ومائدة وكراسى وعلى جدرانها صورة الامبراطور والامبراطورة ـ وهى أيضا معطاة من الشركة ـ وصور جنود وقديسين ، والساعة ، وهناك باب آخر بالقرب من باب السلم يفضى الى القبو ، ورائحة بصل مطبوخ محتبسة تسمم الهواء الراكد المثقل برائحة الفحم ..

واستطاعت البنت بقطعة من الخبز وجبن أبيض وقليل من الزبد أن تعد الشطائر الاربع التى يحملونها معهم الى المنجم لتكون «تصبيرة» الساعة العاشرة ، وقد أعدتها بعدالة متزمتة ، من الشطيرة الكبيرة الخاصة بالاب الى الصغيرة الخاصة بالولد « جانلان » .... وفى عجلة ابتلع الاربعة قدرا من الحساء بعد أن تركت البنت فوق زاوية الموقد نصيب الجد ، حتى يجده عند عودته فى الساعة السادسة ساخنا ..

وتناول كل منهم بعد ذلك حذاءه الخشبى من تحت البوفيه ، وأدخل فتلة الزمزمية فى كتفه ، ثم حمل « التصبيرة » فى ظهره بين القميص والسترة ....

وخرجوا ، الرجال أولا ، ثم البنت ، لتطفىء الشمعة وتدير المفتاح فى الباب ..

وكانت الابواب فى محلة العمل قد فتحت وتدفقت منها فى الليل خيوط سوداء من العمال ، وبرز من البيت المجاور « ليفاك » من ابنه « ببير » وهو صبى فى الثانية عشرة ، وصديق كبير لـ « جانلان » ....

وانطفأت الانوار وعاد الى النوم كل شىء فى البيوت ، النساء والاطفال ، فى سرر صارت الان اوسع ....

ومن القرية الى المنجم انطلق تحت الزوابع موكب بطىء من ظلال ترتعش من البرد وتتراخى على طول الطريق فى خطى قطيع ..



ومثل اخويهـا لبست
« كاترين» بنطلون تامل
المنجم وسترته وصارت
لها هيئه رجل صـغير

— ٣ —

ــ أليسوا هنا فى حاجة الى عامل ، لاى نوع من العمل ؟

كان العمال عند هذا السؤال يهزون رءوسهم ويطلبون من «اتيين» أن ينتظر قدوم « الاسطى دانسايير » ٠٠٠٠ وكانت أربعة مصابيح قوية مثبتة عند مدخل المنجم تلقى نورها كله على الآبار والروافع وأقفاص النزول الى الاعماق ٠٠ أما سائر البهو الفسيح كأنه صحن كنيسة ، فكانت تتحرك فيه ظلال الرجال وعربات لا تهدأ حركتها فوق القضبان وآلة ضخمة فى صالة عليا وراء البئر ، جالسة فى شموخ فوق قاعدتها المبنية ، مبرقة بفولاذها ونحاسها ، هادرة بقوة أربعمائة حصان ، وقد وقف العامل الذى يخدمها مصغيا الى رنين الاشارات ، دون أن يرفع بصره عن اللوحة الموضحة لسير العمل ، حيث كانت البئر بطبقاته المختلفة ممثلا بخط رأسى تقطعه قطع من الرصاص معلقة فى خيوط ، ترمز الى الاقفاص ٠٠

وكلما هبط قفص بحمولته من العمال الى بطن الارض دارت البكرتان الضخمتان اللتان يلف حولهما السلكان الفولاذيان فى الاتجاه العكسى بسرعة مذهلة ، فتغوص الاقفاص وتعود فارغة ومليئة، والآبار تبتلع الرجال على لقمات من عشرين أو ثلاثين ، والقفص الحديدى يصعد كل حين من الظلمة ، بهدوء حيوان ليلى ، بطوابقه الاربعة التى يحتوى كل منها عربتين مليئتين بالفحم ، ويخرج منه عمال ليدخله آخرون ٠٠ وكان العمال اذا دخلوا فى العربات الفارغة ينحشرون فيها ثم يصدر الامر من مكبر الصوت ، فيرتفع نعير أصم ، ويهتز حبل الاشارة أربع مرات لاخطار العالم التحتى بهذه الحمولة الجديدة من اللحم البشرى ، ثم ينتفض القفص ويغوص فى صمت ، ساقطا مثل الحجر ٠٠

وسأل « اتيين » عاملا كان ينتظر بالقرب منه فى نعاس :

ـ هل هو عميق ؟ ..

ـ ٥٥٤ مترا ، ولكن هناك أربع مصاطب تقع الاولى منها على عمق ٣٢٠ مترا ..

فاندفع « اتيين » خارجا فى خوف مبهم ، فلقيته عند مبنى المراجل المستعرة جماعة أخرى من العمال مقبلة على المنجم ، مكونة من أسرتى « ماهوى » و « ليفاك » .... وعندما لمح « كاترين » بهيئتها الغلامية الهادئة التى لا تشى بجنسها ، سألها :

ـ قل لى يا زميل ، أليسوا فى حاجة هنا الى أى عامل ، لاى عمل؟..

نظرت اليه مندهشة ، لكن أباها تكلم عنها فى شىء من العطف على هذا العامل المتعطل الباحث عن أى عمل .. لا ، ليسوا فى حاجة الى أحد .. الاحوال صعبة .. وانتهى الحديث القصير عندما تكاثر العمال حول البنت « موكيت » بنت الثامنة عشرة التى تتفجر سترتها بصدرها وبنطلونها بعجزها ، وكانوا كما جرت العادة معها يداعبونها بخشونة مألوفة ، فهى معروفة بأنها تنعم بوصال أى محب ، وكل المنجم مر بها ، وسط حقول القمح فى الصيف أو لصق حائط فى الشتاء .. !

لكن المرح تلاشى عندما عرف « ماهوى » أن زميلتهم فى العمل « فلورانس » لن تأتى ، لانهم وجدوها على سريرها متخشبة .. وكانت « فلورانس » زميلة « كاترين » فى العمل ضمن فريق « ماهوى » الذى يضم أيضا « زخارى » و « ليفاك » وعاملا آخر اسمه « شافال » ، فصاح « ماهوى » فجأة طالبا من « كاترين » أن تأتيه بذلك الشاب المتعطل المتسكع أمام مبنى المراجل .. على حين اندفعت موجة من العمال خارجة من البئر ، وتأهب الجدد للنزول وفيهم الغلامان الصديقان « جانلان » و « بيبر » وبنت ناحلة اسمها « ليدى » فى سنتها العاشرة ، وأمامهم «موكيت » السمينة تصرخ فى السلم المظلم وتتوعد « الاطفال القذرين » بالصفع اذا هم قرصوها .. !

ولحقت « كاترين » بالشاب الغريب عند المراجل وضحكت عندما فهمت من رده الشاكر عليها أنه لا يزال يحسبها ولدا ، وعادت به الى أبيها الذى حصل له على اذن التشغيل ، مقابل فرنك ونصف فى اليوم .... وأعطوه غطاء جديدا للرأس وجاروف « فلورانس » الراحلة

ومصباحا ، ثم لم يلبث أن هوى به القفص مع الآخرين فى تلك الظلمة الفاغرة ..

ها هى ذى الاعماق السوداء ، وها هو ذا فى القفص مع الاخرين يمر بطبقات المنجم مرور الريح الخاطفة ، فلا يرى منها الا خطفات سريعة تكشف له كهـــوفا يضطرب فيها رجال مثله ، ثم فى الحـــال يعود السقوط السريع ..

وأخيرا توقف القفص فى قعر المنجم على مسافة ٥٥٤ مترا من سطح الارض ، بعد أن استغرق هذا النزول دقيقة واحدة ! ..

ومع زملائه الجدد دخـــل قاعة منحوتة فى الصخر تنيرها ثلاثة مصابيح ضخمة وفيها عمال يدفعون عربات مفعمة بالفحم المقطوع من صلب الارض ، خارجة من أربعة سراديب فاغرة أفواهها ..

وانفصل العمال الهابطون الى جماعات ودخلت كل جماعة الىأعماق خرق من هذه الخروق السوداء ..

وهنا علم العامل الجديد ان امام جماعته مسيرة كيلومترين قبـــل أن يبلغوا عملهم فى بطن السرداب ....

وبلا كلمة ، وعلى ضوء المصابيح الصغيرة فى الايدى ، ذهبوا الواحد بعد الآخر لتتلقاهم من أعماق السرداب كل حين زمجرة آتية من بعيد كأنها زوبعة مقبلة من أعماق الارض ، ثم يثقب الظلمة ضـــوء يجعلهم يلتصقون بالجدار متريثين حتى يمر حصان يجر قطارا من العربات.. وفوق العربة الاولى كان الصبى « ببير » جالســا بينما كان صاحبه « جانلان » يجرى حافى القدمين وقبضتاه معتمدتان على حافة العـربة الاخيرة .. وصارت مفارق الطرق غير مستوية ولا أمينة ، حتى بلغوا « العرق » الذى فيه عملهم ، وهنالك كان السقف خفيضا يضـطرهم أن ينكسروا تحته نصفين ، والماء فى الارض فوق كعوبهم .. !

كان اسم هذه المنطقة « جحيم المنجم » ، وكان قد سبقهم اليهـــا زميلهم « شافال » وهو طويل نحيـــل قوى الملامح فى عامه الخامس والعشرين ، فسأل بازدراء عندما رأى الزميل الجديد :

— ما هذا ؟ ..

وعندما روى له « ماهوى » الحكاية كان رده من بين أسنانه :

— اذن فالصبيان يأكلون خبز البنات !

وتبادل الشابان نظرة مشتعلة بذلك الحقد الغريزى الذى يتوقد فجأة ، لكن العمل بدأ فى الحـــال وانطلقت هذه الحشرات الآدميـة تقرض الارض ٠٠٠٠٠

ومن ضيق المكان التصق « اتيين » بزميلتـــه وهما يتحـــركان ، فهمس فى ذهول :

ــ أنت اذن بنت ؟ ٠٠

فأجابته « كاترين » فى مرح :

ــ حقا ! كيف عرفت هذا ؟!

كان عملهما ــ هو وهى ــ مقصورا على حشو العربات ودفعها ، أما الاربعة الآخرون فقد تمددوا بطول عرق الفحم بين السقف وجـــدار السرداب ، بحيث لا يملكون التحرك الا بدفعات من الكوع والركبة ، راقدين على جنـــوبهم ، وأعناقهم ملتوية وأذرعهم مرفوعة وفى كل يد معول قصير النصل ٠٠٠٠

وكان الفحم الذى تقطعه معاولهم يتهاوى على بطونهم ومن خـــلال أفخادهم ، فى جو من الحرارة والرطوبة ولهاث الصـــدور وهمهمة التعب المضنى ٠٠

وكلهم صاروا ســـــودا تحت تراب الفحم الناعم الذى يذوب فى عروقهم ٠٠

وعلمت البنت الولد كيف يستخدم جاروفه ليملأ عربته ، بضربات صغيرة موزونة من الجاروف ، منتظمة وسريعة ، ثم كيف يدفع العربة المليئة ستين مترا ، بكل عضلات جسمه ٠٠ وتبعها وهو يحـــاول أن يقلدها فى مشيتها على أربع ، كحيوانات السيرك القزمة ٠٠٠٠

وفى الساعة العاشرة راحة قصيرة لتناول « التصبيرة » فنزلوا من جحورهم وأقعوا ــ الكوعان فى الجنبين والاليتـــان على الكعبين ــ فى ذلك الوضع المعتاد لعمال المنـــاجم ، الذى يحتفظون به حتى خارج المنجم ٠٠ لكن « كاترين » ظلت واقفة بالقرب من الزميل الجديد الذى كان قد تمدد بعرض القضـــبان مـــكدودا ، وظهره فوق القضيب ، وسألته وفمها ملء وطعامها فى يدها :

ــ ألا تشاركنى ؟ ٠٠

ولم يثنها قوله أنه ليس جائعا ، فاستمرت فى مرح :

ـ انى لم اقضم الا من هذه الناحية فقط ! ..

وقسمت لقمتها نصفين وأعطته نصيبه ثم رقدت الى جانبه باطمئنان ، على بطنها ، وذقنها فى احدى يديها وهى تأكل بالاخرى فى أناة ، ومصباحاهما بينهما ، ثم ابتسمت وقالت وهى تتأمل صاحبها :

ـ لماذا طردوك من سكتك الحديدية ؟

ـ لانى صفعت رئيسى ..

ثم أردف مفسرا :

ـ يجب ان أقول انى كنت ثملا ، وانى عندما أشرب أصير مجنونا واحس الحاجة الى ان آكل رجلا ، ثم بعد ذلك أظل يومين مريضا ..!

ـ ينبغى اذن ألا تشرب ... أين تعيش أمك ؟

ـ غسالة فى باريس ...

وذكر أهله السكيرين وأمه التعسة وطفولته الشقية ، لكن زميلته سألته وهى ترفع سداد زمزميتها :

ـ أتريد أن تشرب قهوة ؟ ..

ولم تعبأ برفضه ، بل نهضت على ركبتيها ومدت له زمزميتها فرآها قريبة منه كل القرب فى نور المصباحين ، ووجد لها الآن وهى تحت تراب الفحم الناعم فتنة فريدة .. وسألها عن عمرها فغضبت عندما توقع أن تكون بنت أربع عشرة سنة .. انها فى الخامسة عشرة ، ولكن البنات هنا بطيئات النمو .. وراحت تقول له كل شىء .. دون قحة ولا حياء . وكانت لا تجهل شيئا عن الرجال والنساء ، تلك الطفلة العذراء .. قصت عليه حكايات فظيعة عن « موكيت » السهلة ، بصوت هادىء مرح .. فسألها ان كان لها هى ايضا عاشق ، فأخذت تداعبه قائلة انها لا تريد أن تعصى أمها ، وان كان ذلك سيحدث حتما فى يوم من الايام ، ذلك أن فى الوسع دائما العثور على عشاق عندما يعيش الجميع معا ، أليس كذلك ؟ .. ثم ان هذا لا يضر أحدا ، وما من أحد يقول شيئا ..

وفجأة ظهر « شافال » مندفعا نحو « كاترين » فتناولها من كتفيها وقلب رأسها وهى جالسة وسحق فمها تحت قبلة عنيفة ، وفعل ذلك فى هدوء وعدم إكتراث بوجود الشاب الآخر ..

كان فى هذه القبلة استيلاء غيور على مركز خاص بالنسبة للبنت ، لكنها صرخت فيه أن يتركها ، فذهب عنها دون أن يقول كلمة ..

واندفعت هى تؤكد أنهـا لم تكذب وأن « شـافال » هذا ليس عشيقها ، وكانت فترة الراحة قد انتهت فانقض الجميع من جديد على العمل ، خاضعين لفكرة ثابتة هى أن يتموا شحن أكبر عدد من العربات ، فالاجر يدفع بالعربة ..

ولم يلبثوا كلهم أن أخذهم العمل فى جذبته المستغرقة ، فما عادوا يحسون المـاء الذى يرشـح تحت جلودهم ويورم أعضـاءهم ، ولا التقلصات العضلية الناشئة عن اوضاع العمل المغتصبة ، ولا الظلمة الخانقة التى تخلو فيها رئاتهم من الانفاس وهم يدقون ويدقون ... وكأنهم سيظلون يدقون فى الاعماق الى الابد !



ـ ٤ ـ

كان يطيب لهؤلاء المتصببين عرقا فى أقبية الصمت الســـوداء أن يهاجموا كبار الرؤساء فى الشركة ، لكن « ماهوى » كان يقلق ويتلفت حواليه وهو يوصى زملاءه بالحذر ، فحتى فى هذه الاعماق الســحيقـــة كانوا يخشون « الآذان » ، كما لو كان فحم المساهمين ، وهو مايزال فى العرق الدفين تحت الارض ، له آذان تسترق السمع !

وكانوا فى ذلك اليوم يتهامسون بعلاقة « الاسطى دانسايير » بزوجة العامل « بييرون » عندما غضب « ماهوى » وقد غشيه الخوف :

ــ من اراد أن يصيبه اذى فلينتظر حتى يكون وحده !

وجاء من الممر العلوى وقع خطى ، ثم ظهر المهندس « نيجرل » الذى يدعوه العمال فيما بينهم « نيجرل الصغير » ومعه « دانسايير » فغمغم « ماهوى » :

ــ أما كنت أقول لكم ! .. انهم دائما يطلعون من تحت الارض !

وكان المهندس « بول نيجرل » شابا فى السادسة والعشرين ، وابن أخ للمدير « هينبو » ، وكان فى عينيه الحادتين ذكاء مستريب يتحول الى سلطة قارصة فى علاقاته مع العمال ، وكان لابسا مثلهم ، ومثلهم كان مغطى بتراب الفحم .. وهو يبدى فى العادة شجاعة من لا يهمه أن تتكسر عظامه ، ويقتحم الاماكن الوعرة ، بل كان ــ حتى يلزم العمال احترامه ــ سباقا الى مواطن الخطر عندما يحدث انهيار أو التهـــاب غازى ... أما « دانسايير » فكان بلجيكيا غليظ الوجه وله أنف كبير شهوانى ...

وتساءل المهندس عن العامل الجديد الذى بدأ عمله اليوم ورفع مصباحه وتأمل « اتيين » دون أن يكلمه ..

واخيرا قال مخاطبا رئيس العمل :

ــ لا احب أن نلتقط المجهولين من الطريق ، فلا تعد لمثلها !

وأخذ يدرس السقف والعوارض الخشبية التى يصنعها العمال لدعمه ، وصاح فجأة :

ــ بهذا السقف لن تخرجوا من هنا أحياء !

فرد « ماهوى » بهدوء :

ــ السقف متين ! . .

ــ بل هو فى حاجة الى مضاعفة دعاماته ، وفى الحال !. . . ضاعفوا الخشب ، أتسمعون ؟

وتهيج امام العمال الذين كانوا يناقشونه قائلين انهم مطمئنون الى سلامتهم . .

ــ عندما تتحطم رءوسكم ، فهل أنتم الذين تتحملون النتائج ؟ . . . بالمرة ! . . . الشركة هى التى سيكون عليها أن تدفع تعويضات ، لكم ولنسائكم !. . . أكرر لكم أننا نعرف حقيقتكم ! . . . انكم من أجل الحصول على زيادة عربتين فى آخر النهار مستعدون للمخاطرة بحياتكم !. . .

كبت « ماهوى » الغضب الذى كان يتعاظم فى نفسه وقال مرة اخرى برزانة :

ــ لو كانوا يدفعون لنا كفاية لكان دعمنا للسقف أحسن !

هز المهندس كتفيه وختم كلامه :

ــ أنذركم بأن مجموعتكم عليها غرامة ثلاثة فرنكات !

وثارت نفس « اتيين » وفار دمه . . . أمن الممكن ان يقتل الانسان نفسه فى مثل هذا العمل الفظ وفى هذا الجحيم المميت ، ثم لا يكسب حتى الثمن الزهيد لخبزه اليومى ؟

ومر الوقت ، وانتهت المجموعة من تثبيت الدعامات الجديدة ، ثم انطلقوا حاملين ادواتهم فى طريق العودة الى سطح الارض . .

ومشت « كاترين » امام « اتيين » وهى تتلفت نحوه وكأنها تدعوه أن يخرج من جموده ويكون لطيفا ويضاحكها ، فما كذبت عليه وماهى بعشيقة الشاب الاخر .. وكان يزداد ارتعاشهم كلما اقتربوا من المدخل ، حتى بلغوا البهو الذى يشكل القاعدة السفلى لقفص الصعود وهم غارقون فى عرقهم فى تيار الهواء المثلج . . .

وهناك كان عمال « الوردية » الاولى يتجمعون ، الرجال والنساء

والاطفال ، ثم ظهر الولدان « ببير » و « جانلان » مع قطار يجر عرباته حصان أبيض مرتعد على أرجله الشائخة ، فلاطفته « كاترين » وهى تكلم عنه زميلها الجديد .. انه الحصان « معركة » عميد المنجم الذى اشتغل فى هذه الاعماق عشر سنين ، وشغل فى الاسطبل الكبير المحفور تحت الارض نفس المكان ، وقام بنفس العمل طوال تلك المدة على طول الممرات السوداء دون ان يرى ضوء النهار مرة واحدة ..

وكان مظهر الحصان يدل على أنه يقضى هناك فى العالم السفلى حياة حكيمة مذعنة لا تكاد تذكر الشمس ولا الطاحونة التى ولد فيها وسط الخضرة اليانعة ..

وظل العمال يتكومون عند باب القفص حتى أقبل المهندس والاسطى عائدين من التفتيش .. وعادة النظام جعلت العمال يصطفون ، بينما يخترقهم المهندس بلا كلمة !

ودخل المهندس والاسطى الى القفص ، وشد الحبل خمس مرات ، اشارة الى أن « اللحم » الطالع من النوع « الكبير » كما كان يقال عن الرؤساء ، وانطلق القفص وسط صمت عابس صاعدا فى خفة ...

وفى القفص الذى كان يعيده الى الدنيا كان « اتيين » قد قرر استئناف زحفه الجائع التائه ، فأولى له ان يموت فى الحال من أن يعاود النزول الى قاع ذلك الجحيم الذى لا يكسب من ينزله قوته .. وأولى له أن يذهب قبل أن يخنق هنا أحد الرؤساء !

وعند تلقاهم النور أعشى كالعادة أبصارهم ، ودعا « زخارى » صديقه « موكيه » شقيق البنت « موكيت » الى السهرة معه فى « البركان » ملهى بلدة مونتسو ، ثم ظهرت اخته فناولها لطمة على خاصرتها تعبيرا عن الحنان الاخوى .. ! لكن « شافال » كان قد عاد ثائرا من دراسة لوحة الاجور فى مكتب الصراف ، حيث علم أنهم خصموا من جهد الفرقة أجر عربتين ، بزعم أن الاولى لم تعبأ بالكمية النظامية والثانية لم يكن فحمها نظيفا .. وصاح « شافال » وهو يوجه نحو « اتيين » نظرة تكمل فكرته :

ـ هذه نتيجة انضمام الكسالى الذين يستخدمون أذرعهم كما يستخدم الخنزير ذيله !

وعدل « اتيين » عن الرد بقبضته ، مادام راحلا عن المكان ومن فيه

وقال « ماهوى » ليصنع السلام :

ــ لا يمكن لاحد أن يحسن العمل فى اليوم الاول ، وغدا يكون عمله أحسن ..

وكانت « موكيت » فى هدوء مطمئن قد انزلت بنطلونها لتجفف قميصها فأحاط بها هذر الغلمان ، وانفجر الضحك عندما عرضت عليهم فجأة تعبيرها الاقصى عن الازدراء .. عجيزتها .. وكانت « كاترين » خلال ذلك تكلم أباها بصوت خفيض وتنتزع موافقته على وجهة نظرها ، فنادى « اتيين » وقال له :

ــ اسمع .. اذا لم يكن معك نقود فقد يسعنى أن أحصل لك على قرض من أية جهة ، أم تريد ان تموت قبل ان يحل موعد صرف الاجور نصف الشهرى ؟

فوقع الشاب فى حيرة ، فقد كان فى عزمه أن يطالب بأجر يومه الهزيل ويرحل ، اما الآن فقد غلبه الحياء امام البنت التى تحدق فيه وسكت وهو يتمنى الا يكون هناك قرض آخر الامر .. وعندما رأت البنت سكوته ضحكت فى سرور وشملته بنظرة صداقة سعيدة ...

وتحركت جماعتهم الصغيرة فى طريق العودة ، فالتقوا بعمال « بوردية » الساعة الثالثة فى طريقهم الى القطاع ، فالمنجم لا يكف عن أكل الرجال ، وفى الليل والنهار تحفر فى صخوره الحشرات الآدمية ، على عمق مئات الامتار تحت حقول البنجر ...

وكان الاولاد يمشون فى الطليعة ، فلما بلغ الكبار خمارة «الافتتاح» توقف « ماهوى » و « ليفاك » وقال الاول للشاب الحديث العهد بحياتهم :

ــ ادخل معنا ! ..

ودخل الرجال الثلاثة الخمارة ، وانطلق الآخرون على الطريق الصاعد الى مجموعة البيوت

ــ ٥ ــ

خمارة « الافتتاح » تتوسط الطريق بين المساكن والمنجم ، وهى بيت من دورين مبنى بقوالب الطوب ومبيض بالجير ، وحول نوافذه براويز باللون الازرق السماوى ، وعلى لافتة مربعة مسمرة فوق الباب ، بحروف صفراء :

« الافتتاح ـ حانة يديرها راسنير »

وكان المكان صالة صغيرة ساطعة العرى ، جدرانها بيضاء ، وليس فيها غير ثلاث مناضد واثنا عشر كرسيا وبار خشبى ودستة من الاكواب وثلاث زجاجات من الخمر وصندوق صغير من الزنك بحنفية من الصفيح ، للبيرة ، ولا شيء غير هذا .. لا صورة ولا رف ولا لعبة ، الا قطعة من الفحم تحترق بهدوء فى الموقد المصقول اللامع المصنوع من الحديد الزهر ..

وشرب « ماهوى » كوبا من البيرة دون أن يطلب شيئا لزميله ، وقدم الشاب الذى معه لصاحب الخمارة .. وكان « راسنير » رجلا ضخما فى نحو الثامنة والثلاثين ، ووجهه كروى حليق وابتسامته لينة . ومنذ ثلاث سنوات كان عاملا فى المنجم ثم طردته الشركة على اثر اضراب ، اذ كان حسن الكلام متزعما لكل المطالب وطليعة للساخطين .. وعند طرده كانت زوجته ـ مثل كثير من نساء العمال ـ تدير دكانا .. فوجد المال اللازم لافتتاح الخمارة، متحديا الشركة ، وازدهر عمله وصارت خمارته مركزاً للاجتماع .. واغتنى من الغضب الذى كان قد نفثه شيئا فشيئا فى قلوب زملائه السابقين ، ولم يكد يسمع أن هذا الشاب الغريب فى حاجة الى حجرة تأويه وسلفة تعينه أياما حتى نطق وجهه بالحذر الشديد وامتحن الشاب بنظرة قبل أن يقول ان حجرتيه اللتين يؤجرهما مشغولتان ...

وكان « اتيين » ينتظر هذا الرفض لكنه آلمه بالرغم من ذلك ..

ثم يبق له الان حقا الا ان يأخذ من الصراف اجر يومه الواحد ويذهب الى المجهول ..

لكن « راسنير » كان يسأل « ماهوى » فى اهتمام عن أخبار المنجم ، وعندما سمع حكاية الخصم انتفخ بغضب دموى ، وانفجر :

ــ اذا عمدوا الى تخفيض الاجور فقد ضاعوا !..

وأخذ يكرر ان الامور لا يمكن أن تستمر على هذا النحو ، فالبؤس ازداد والمصانع تغلق والعمال يطردون ، ثم انه تلقى أخيرا رسالة من مدينة « ليل » مليئة بالتفاصيل المقلقة ، كتبها اليه « بلوشار » الميكانيكى الذى جاء الى الخمارة ذات مساء وتحدث الى روادها عن الازمة :

ــ ولقد رأيته أنت يا « ماهوى » .. أتذكره ؟

وهذا الاسم الذى ظهر فى الكلام فجأة جعل « اتيين » الصامت يختلج ويرفع صوته :

ــ أنا أعرفه ، « بلوشار » !.. كان رئيسى فى « ليل » وهو رجل مقتدر .. كثيرا ما تحدثت معه ..

هنا عاد صاحب الخمارة يفحصه من جديد وقد حدث فى وجهه تغير سريع واستلطاف مفاجىء .. والتفت « راسنير » آخر الامر الى زوجته ــ وكانت طويلة ونحيلة ومحبة للكلام ــ وقال لها كلمات قليلة كانت نتيجتها أن هناك فى الحقيقة حجرة رحل عنها فى الصباح من كان يشغلها ! ..

هكذا وجد « اتيين » نفسه مرتبطا بهذا الركن من الارض الذى عافته نفسه ..

والان وفى كل يوم سيعود الى النزول فى المنجم ليتعذب ويصارع ذلك الاله المتخم المقعى الذى يقدم له عشرة آلاف جائع لحمهم قربانا ، دون أن يعرفوه ..

— ٦ —

على مسافة كيلومترين من شرق « مونتسو » مزرعة صغيرة حول بيت كبير مربع بنى فى مستهل القرن الفائت على غير طراز ، ولم يبق داخلا فى حوزة أصحابه « آل جريجوار » من الاراضى الواسعة التى تحيط بالبيت غير ثلاثين هكتارا هى أحسن ما فيها ، على حين كان طريق الزيزفون الذى يشكل قبة خضراء طولها ثلاثمائة متر ، ممتدة من البوابة الخارجية الى بسطة السلم ، يعتبر احدى تحف ذلك الاقليم الاجرد الذى كانت الاشجار الكبيرة فيه أعلاما معدودة

وفى ذلك الصباح ، كان السيد الشيخ « جريجوار » والمدام التى تصغره بسنتين ينتظران يقظة وحيدتهما المدللة « سيسل » التى كانت قد تأخرت فى نومها .. وكانت الطباخة العجوز التى خدمت الاسرة ثلاثين سنة تعد فى المطبخ فطائر شهية من النوع الذى تحبه « سيسل » .. والوصيفة « هونورين » الشابة — التى التقطوها طفلة وربوها فى البيت — تنتظر هى أيضا يقظة « المدموازيل » التى جاءت الى الدنيا منذ ثمانية عشر عاما بعد أن يئس السيد والسيدة من الذرية ، فهما يعبدانها اليوم بكل أشواق العمر المكبوتة ..

كانت أسرة غنية يبلغ دخلها أربعين الف فرنك فى السنة ، وكانت ثروتها مستغلة كلها فى أسهم شركة مناجم مونتسو العتيدة ، وكل الاجيال السابقة من الاسرة قد عاشت فى رغد على هذه الحصة ، طول مائة سنة ، دون أن يعمل أحد أفرادها شيئا .. كانت هذه الاسهم هى القوة الالهية الصفات التى تهدهدهم فى أسرة الكسل وتسمنهم على موائدهم النهمة .. وكانوا فى عالمهم المطمئن بعيدين عن العالم الذى يصنع لهم ذلك الخير وعن أجيال الجياع الذين يستخرجونه لهم يوما بعد يوم ..

وأخيرا صحت من نومها « المدموازيل » التى تنام اثنتى عشرة ساعة وتتلقى « تعليمها » كله فى البيت ، فتأتى مدرسة البيانو من « مارشيين » كل يوم اثنين ويوم جمعة ، كما يأتى مدرس للآداب ليتحمل نزوات تلميذة طفلة النفس تقذف بكتابها من الشباك اذا لم يعجبها سؤال ..!

ووصل « دينولان » ابن عم صاحب البيت فدار الحديث عن ابنتيه « جان » و « لوسى » اللتين تحاول أولاهما أن تكون رسامة بينما الكبرى تمرن صوتها على البيانو من الصباح الى المساء ، لكن الكلام لا يلبث أن يتحول الى المناجم والارباح والخسائر . وكان « دينولان » مثل ابن عمه ، وبالوراثة ، مساهما فى شركة مناجم مونتسو قبل أن يبيع حصته فى فترة ارتفاع أسعار الاسهم كى يستغل لحسابه منجما صغيرا ورثته زوجته عن أحد أعمامها ، لكن هذا المنجم « جان بارت » ظل فى حالة سيئة ، لا تكاد حصيلته تغطى نفقاته حتى بعد أن ابتلع تجديده ثمن حصة الرجل فى الشركة الكبيرة ، وقد جاء اليوم ليسأل ابن عمه أن يقرضه مائة الف فرنك ، لكن « جريجوار » نصحه أن يبيع منجمه المزعج للشركة الكبيرة التى تتلمظ منذ زمن على امتلاكه وتوسيع آباره وتجديد آلاته واستغلاله ..

ــ أنا أبيعه ؟.. أبيعه لاولئك المركيزات والدوقات والجنرالات والوزراء ؟.. لهؤلاء اللصوص الذين لو ملكوا لانتزعوا من المرء حتى قميصه ؟! ..

وكانت « سيسل » تنتظر مدرسة البيانو عندما أقبلت امرأة « ماهوى » وطلبت أن ترى السيد والسيدة .. هل يدخلونها هى وطفلتها « لينور » وطفلها « هنرى » ؟ هل هم فى منتهى القذارة ؟.. فليتركوا أحذيتهم الخشبية على بسطة السلم وليدخلوا .. ودخلت امرأة عامل المنجم وطفلاها كالاشباح المثلوجة الجائعة ، وهى فى خوف من هذا البيت الذى تفوح فى صالته الدافئة رائحة الفطير الطيبة ...

وكانت امرأة « ماهوى » قد اقبلت فى طلب خمسة فرنكات ، حتى يجد الرجال عند عودتهم الى البيت ما يأكلونه ..

وفى طريقهـا اليهم مرت على « ميجرا » الذى يكدس فى مخزنه أنواع البقالة واللحوم والفـواكه والخبز والبـيرة ، وقالت له فى ذل وانكسـار :

ـ هذه أنا يا مسيو « ميجرا » مرة أخرى !

كان سمينا ، بارداومؤدبا ،وكان قد بدأ حياته مراقبا فى المنجم ، ثم صاحب « كانتين » صغير ، ثم اتسعت تجارته بفضـل حمـاية رؤسائه فقتل صغار تجار التجزئة فى « مونتسو » واحتكر البضائع، ووفرت له كثرة الطلب من مجموعات مساكن العمال فرصـة البيع بسعر أقل من غيره ، وأخذ يقرض العـمال وهو نفسه فى قبضـة الشركة التى بنت له بيته ومتجره ..

نظر اليها ببروده المتعالى ، فتلعثمت المرأة :

ـ صحيح أننا يا مسيو « ميجرا » مدينـون لك بسـتين فرنكا ولكنك لن تردنى كما حدث أمس خائبة ، اذ يجب أن نأكل خـبزا من هنا ليوم السبت ...

وعند كل عبارة توسل من المرأة ، كان الرجل السمين يهز رأسه رافضا فى برود ، وذراعاه معقودتان على صدره ، وكرشه بارز ..

ـ أن هما الا رغيفان يا مسيو « ميجرا » فأنا لا أطلب بنـا ... لا شىء الآ رغيفين فى اليوم !

وأخيرا صاح بكل قوته :

ـ لا !..

وكانت زوجته قد ظهـرت ثم اختفت مذعورة من رؤية هـذه التعسة ، وهى تناشدها بعينين يلتهب فيهما الرجاء ، وكانت « مدام ميجرا » مخلوقة ضئيلة تقضى الايام عاكفة على سجل الحسـابات دون أن تجرؤ على رفع رأسها ، وكان شائعا أنهـا تنزل عن السرير الزوجى صاغرة للعاملات ونسـاء العمـال من زبائن المتجر ، وكان من المعروف أن العـامل الذى يريد مد أجل دينه لم يكن عليه الا أن يرسل إبنته أو امرأته دميمة أو جميلة ، ما دامت سهلة طيعة..

والآن لم يبق أمام امرأة «ماهوى» الا أن تقصد أصحاب المزرعة ، فاذا لم يعطوها هم أيضـا ما تطلب فلترقد هى وأهلهـا جميعـا ويستسلموا ويموتوا ...

وعندما مرت فى طريقها أمام مبنى الادارة ــ القصر الذى يأتى السادة الكبار من باريس والامراء والجنرالات وشخصيات حكومية لاقامة مآدب كبيرة فيه كل خريف ــ كانت وهى تسحب طفليها « تنفق » الفرنكات الخمسة وتوزعها بين الخبز والبطاطس والبن وقليل من الزبد ونصف رطل من جبن الخنزير ...

ومر بها « الاب جوار » قسيس « مونتسو » وقد شمر ثوبه فى نظافة قط حسن التغذية يحاذر أن يبتل ، فحيته فى رجاء لكنه لم يتوقف واكتفى بأن ابتسم للطفلين العابثين فى الوحل .. ولم تكن للأم ديانة ، لكنها كانت قد تصورت أن رجل الكنيسة سوف يعطيها شيئا .. !

وأخيرا وصلت المزرعة وأدخلوها بعد تردد ووقفت بين طفليها فى تلك الصالة الدافئة ، وأمام سيد وسيدة ممددين فى حالة هضم فى متعدين مريحين .. والمبدأ فى هذا البيت ألا تكون الصدقة نقدية ، فان « الفقير اذا حصل على اى نقود انفقها فى الحال فى شرب الخمر » بل عينية ، وفى الغالب تكون صدقة « آل جريجوار » فى شكل ملابس توزع فى الشتاء على الاطفال المعوزين .. وهبت « سيسل » تأمر وصيفتها « هونورين » أن تأتيها بالربطة التى فى الدولاب .. وفتح الطفلان عيونهما الكبيرة على بقايا الفطيرة فوق المائدة .. وانتظر الفقر والغنى وجهاً لوجه ..

رأت « مدام جريجوار » أن تشغل فترة الصمت القلقة حتى تجىء الوصيفة بالملابس القديمة ، فسألت المرأة الواقفة أمامها :

ــ أليس عندك الا هذان الاثنان ؟

ــ عندى سبعة ! ..

فانتفض السيد الذى كان قد عاد الى قراءة جريدته انتفاضه مستنكرة :

ــ سبعة أولاد ! .. لماذا ؟ .. يا الهى ! ! ..

وتأمل الكائنات الآدمية الواقفة أمامه فى خشوعها ، والتى قرضتها الانيميا وطبعها الجوع بدمامة حزينة ، وقال للمرأة :

ــ العمال ليسوا حكماء ولا يدخرون مثل فلاحينا بل يشربون ويستدينون ، وتكون النتيجة ألا يجدوا قوت الاسرة ..

قالت امرأة « ماهوى » جاهدة ألا تغضب السيد :

ـ السيد على حق ، لكن زوجى أنا مستقيم ، ومع ذلك فان استقامته لا تجدينا نفعا ! .. وهناك أيام ـ مثل اليوم ـ نظل فيها تقلب جميع أدراج بيوتنا دون أن يسقط منها سنتيم واحد ! ..

وكانت تريد أن تصل الى ذكر المبلغ المنشود ، فاستمرت بصوتها الرخو تفسر حتمية الاستدانة ، وأنه ربما كان العمال فى الحقيقة لا يكسبون ما يكفيهم ...

فقالت السيدة متسائلة :

ـ كنت أعتقد أن الشركة تعطيكم المسكن والتدفئة ؟ والمرأة رمت الفحم المتوقد فى المدفاة بنظرة قبل أن تتكلم :

يعطوننا فحما رديئا .. اما عن المسكن فقد تبدو ستة فرنكات فى الشهر أجرا للمسكن شيئا بسيطا ، ومع ذلك فان دفعها يكون فى بعض الاحيان صعبا .. وهكذا ، اليوم مثلا ، لو قطعونى لما حصلوا منى على شىء .. وليس معنى هذا انى أشكو ، فهذه هى طبيعة الامور ، ويجب أن نتقبلها .. وخير للانسان أن ينجز عمله بشرف فى المكان الذى وضعه فيه الاله الطيب ..

فبادر السيد يؤمن على هذا الكلام :

ـ بمثل هذه المشاعر ، أيتها المرأة الطيبة ، يضع الانسان نفسه فوق الشقاء ! ! ..

وأخيرا وصلت الربطة وفتحتها « سيسل » واخرجت منها فستانين وشيلان وجوارب حزمتها الخادمتان فى عجلة ، لان مدرسة البيانو كانت قد وصلت ، ثم دفعت « المدموازيل » الام وطفليها نحو الباب ...

هنا تعلثمت امرأة العامل وهى تقول :

ـ نحن فى ضيق ، فلو أن لدينا قطعة من ذات الخمسة فرنكات فقط ...

لكن العبارة اختفت فى عزة نفسها ، فنظرت « المدموازيل » الى أبيها فى قلق ، لكنه رفض بوضوح حاسم ، قائلا بلهجة من يؤدى الواجب :

ـ لا .. ليس هذا فى عاداتنا .. لا نستطيع ..

وتأثرت « المدموازيل » بوجه الام فقطعت من باقى الفطيرة قطعتين ولفتهما فى جريدة قديمة ، وأعطت اللفة للطفلين وهى تدفعهمـــا مع أمهما ، تحت النظرات المتأثرة من أبيها وأمها



— ٧ —

فى طريق العودة دخلت امرأة « ماهوى » مرة أخرى دكان «ميجرا» وألقت فى وجهها بيأسها المستميت ، فانتزعت منه فى هذه المرة رغيفين وكمية صغيرة من البن وزبدا وفوقها الفرنكات الخمسة .. وصحيح أنه أفهمها أنه يريد « كاترين » — عندما أوصاها ان تبعث اليه فى المرة القادمة بابنتها — لكن البنية ستعرف اذا دنت منهـا أنفاسه كيف تصفعه !

ورجعت الام الى البيت بما تحمل فوجدت أن ابنتها الحدباء«الزير» قد تعهدت النار وكنست الصـالة ورتبتها ، كما حاولت أن تقنع الرضيعة الصارخة « استيل » التى تركتها لها أمهـا بالرضاعة من ثديها الطفل ، ثدى بنت السنوات التسع .. وأخذت الام طفلتهـا الجائعة وأرضعتها ، ثم ذكرت فجأة أنهـا مدينة لامرأة « بييرون » بمقدار طحنة من البن كانت قد اقترضتها منهـا أول أمس ، فأخذت الكمية ولفتها فى ورقة وخرجت حاملة رضيعتها بين ذراعيها ، تاركة العجوز « الموت الطيب » يهرس البطاطس للطبخ ، بينما يتعـارك « هنرى » و « لينور » على أكل القشور الساقطة ..!

وامام الكنيسة رأته زوجة المدير تطوف بضيفين هما سـيد يحمل وساما وسيدة تلبس معطفا من الفراء فى زيارة لمساكن العمال ..

وقالت امرأة « بييرون » لها عندما دخلت وردت لها البن :

— لماذا أتعبت نفسك ؟.. لم يكن هناك ما يستعجلك !..

كانت امرأة فى الثامنة والعشرين ، سـمراء بعينين واسعتين وفم صغير ، وكانت لها سمعة أجمل امرأة فى المجموعة ، وهى لعوب فى نظافة القطة ، وصـدرها محتفظ بجماله لانها لم يكن لها أبناء .. وكانت هى وزوجها « بييرون » يعيشان فى هناء بالرغم من الشائعات عن تساهله وعن عشاقها .. فلا ديون ، واللحم مرتان فى الاسبوع

والبيت نظيف يرى الناظر فيه صورته فى الكسرولات .. وكان عندها تصريح من الشركة ببيع الحلوى والبسكويت ، فكانت تعرضها فوق رفين وراء زجاج الشباك .. ولم يكن ينغص حياتها الا أمها «لابروليه» (المحروقة) وهى أرملة عامل مات فى المنجم ولا تكف عن الصراخ مطالبة بالانتقام ، ثم تصب غضبها صفعات على وجه الطفلة « ليدى » ابنة « بييرون » من زواج سابق ..!

وعند عودة امرأة « ماهوى » الى بيتها دعتها جارتها الاخرى امرأة « ليفاك » ـ وأم « فيلومين » عشيقة أبنها « زخارى » ـ الى فنجان من القهوة ..

دخلت فى هذه المرة بيتا قذرا سىء الرائحة ، ووجدت بالقرب من النار العامل « بوتلو » الذى يسكن عند جيرانها هؤلاء ، وكان عند دخولهما يجهز على وجبته ، بينما وقف له بالإرصاد « أشيل » أول أبناء « فيلومين » الذى لم يتم عامه الثالث ، وهو ينظر الى طعامه تلك النظرة المتوسطة الصامتة التى تكون فى عينى الحيوان الشره ، فيحشو له « الساكن » أعماق فمه الكبير من وقت الى اخر بقطعة صغيرة من اللحم .. أما هى ـ امرأة « ليفاك » ـ فكانت تكبره بست سنين ، فظيعة مستهلكة ، والصدر على البطن والبطن على الفخذين ، وشعرها لا يعرف المشط .. لقد أخذها هـذا الفحل الذى يبلغ الخامسة والثلاثين دون أن يقشرها أكثر مما تقشر هى خضار حسائها ، الحساء الذى كان يجد فيه شعر رأسها .. لم يطلب منها أن تكون أنظف من ملاءات سريرها التى لا تغيرها قبل ثلاثة أشهر .. أنها جزء من « البنسيون » داخل فى الصفقة .. والزوج نفسه كان يحلو له أن يكرر أن الحساب الجيد يوجد الاصدقاء الجيدين !

وجاءت امرأة أخرى وعلى يدها طفلة فى شهرها التاسع هى «دزيريه» اخر ذرية « فيلومين » ، اذ كانت تؤخذ كل يوم الى أمهـا فى المنجم لترضعهـا فوق كومة فحم .. فتكلمت المرأتان فى ضرورة زواج « زخارى » و « فيلومين » اخر الامر .. ولم تكن أم الشاب تستعجل هذا الزواج فى الحقيقة ، حرصا على أجر ابنها النافع للاسرة ، على حين كانت أم البنت تستعجل الخـلاص من ابنتها وطفليها اللذين يلتهمان أجرها فلا يبقى منه للام أى نفع !

ومن الشباك رأت المرأتان زوجة المدير وضيفيها يدخلون عند امرأة « بيرون » ليتفرجوا على بيتها النظيف ، ثم خرجوا واتجهوا فى هذه المرة نحو بيت امرأة « ماهوى » نفسها .. فاندفعت الى بيتها لتجد « الزير » منهمكة فى طهى الطعام فى رزانة ، والطفلين يمزقان كراسة فى صمت ، والجد « بون مور » يدخن غليونه فى سكون ، وزوجة المدير تقتحم الباب مبتسمة ، طويلة وشقراء فى نضج الاربعين ، وهى تبذل جهدا لتظهر بالبشاشة الملائمة ولا تكشف خوفها من اتساخ ملابسها !

وكانت زوجة المدير « مدام هينبو » تدعو من معها الى الدخول :

ـ أدخلا ، أدخلا فنحن لا نزعج أحدا !.. اليس هذا ايضا نظيفا ؟.. وهذه المرأة الطيبة عندها سبعة أولاد .. كل بيوتنا هكذا .. وفى كل بيت صـــالة كبيرة فى الدور الاول وحجرتان فى الدور الثانى وقبو وحديقة .. وهناك طبيب يزورهم مرتين فى الاسبوع .. وعنـــــدما يشيخون يأخذون معاشات بالرغم من أننا لا نحجز شيئا من أجورهم !!

ورفض الثلاثة الضيوف أن يجلسوا على الكراسى التى اندفعت المرأة لتقديمها واكتفوا بامتداح البيت والثناء على جمال الطفلين ..

وكان « الموت الطيب » قد أبعد غليونه عن فمه باحترام ، لكنـــه أخذته نوبة سعال عنيف اضطره الى الخروج ليبصق فى الخارج ..

أما الحدباء فقد ظفرت بالنجاح كله ، وقيل نفاقا يالها من ربة بيت جميلة متمرنة من الان على شغل البيت !

واختتمت زوجة المدير الزيارة :

ـ والان ، اذا سألوكم فى باريس عن مساكن عمالنا فانكم تستطيعون أن تردوا .. الكل سعداء وصحتهم جيدة كما ترون .. وهواء طلق وهدوء !..

وخرجوا فى ابتهاج الخارجين من ملهى عجائب ..!

وكانت الزيارة قد جمعت النساء فى الشـــــارع ، ثم توقفت أمام الكنيسة عربة صغيرة مكشوفة ونزل منها المدير العـــام فى ردنجوت أسود ، وسط فضول متزايد من نساء المجموعة الاولى اللاتى شكلن جماعات أخذت تتقارب حتى ذابت فى جمهور واحد ..

وتحركت العربة بالسيدين والسيدتين تاركة وراءها جمهورا نسائيا لاغطا كأنه عش نمل فى حالة ثورة .. لكن ما أن ظهر عند زاوية الكنيسة

أول العمال العائدين فى الساعة الثالثة من المنجم حتى تفرق النساءفى ذعر كل الى بيتها ، ثم لم يعد يسمع الا هـــذه الصيحة القلقة المثقلة بالشجار :

ـ آه ! .. وطعامى الذى ليس جاهزا !..

وبعد هذه الوجبة كانت تقبل ساعة الاغتسال فى مجموعة البيوت كلها ، وهى ساعة الترويح عن النفس ، الفريدة فى اليوم كله ، وتبدأ فى بيت « ماهوى » باستحمام « كاترين » أولا ، أمام الجميع ، ثم يتوالى الاخرون ، حتى لا يبقى فى الصالة السفلى آخر الامر غير الاب والام والرضيعة ...

وفى ذلك اليوم نزلت « كاترين » بفستان الاحد المصـــــنوع من البوبلين الازرق ، وهو شاحب ومستهلك ، وعلى رأسها طاقية بسيطة من التل الاسود ، وقالت انها ذاهبة الى « مونتسو » لتشترى شريطة جديدة لشعرها ...

ـ ومن أين لك النقود ؟..

ـ وعدتنى « موكيت » أن تقرضنى نصف فرنك ..

وتركتها الام تخرج بعد أن نصحتها بالابتعاد عن « ميجرا » وشراء الشريطة من محل آخر ، واكتفى الاب بأن يضيف الى ذلك قوله :

ـ وحاولى الا تتسكعى طول الليل فى الطرق !



— ٨ —

فى ظلمة ليلة جلس « اتيين » عند أطلال منجم مهجور اسمه « ريكيار » يتأمل فتى وفتاة وهما يغيبان وراء ركن حظيرة متهدمة .. لم يتبين أن البنت هى « كاترين » وأن رفيقها هو « شافال » الذى اشترى لها شريطة الشعر وأخذ الثمن منها فى نفس المساء استسلاما طائعا .. كان خروج الفتية والفتيات الى الخلاء مسألة شائعة مألوفة ، حتى البنات اللاتى لم يبلغن مبلغ النساء ، بل ان بعض الاطفال أيضا كانوا يقلدون الكبار .. لكنه عرفهما وهما فى طريق العودة الى المساكن الهاجعة ، حيث يسقط الشغيلة من المائدة الى الفراش منسحقين من الاجهاد .. وعندما عرفها هى بذاتها ذهل وهزه ألم مبهم !

لكن الايام تتابعت فصارت أسابيع وشهورا انتظم خلالها وجوده مع عمله الجديد وعاداته الجديدة وكل ذلك الجو الوعر الذى كان قد ظهر له فى البداية صعبا ومخيفا .. وهو الان مثل زملائه يستيقظ فى الساعة الثالثة ويشرب القهوة ثم يحمل « التصبيرة » التى تجهزها له « مدام راسنير » من الليلة الفائتة ويخرج الى المنجم .. كل شىء صار عنده مألوفا ، الفحم والآلات والعربات والاقفاص .. والاعماق والناس .. فى طريقه الى المنجم لابد أن يلقاه العجوز « بون مور » فى عودته الى النوم ، فاذا خرج من المنجم بعد الظهر قابله « بوتلو » الذاهب الى عمله فى « وردية » العصر ... والآن يعرف ممرات منجم « فورو » خيرا مما يعرف شوارع « مونتسو » ، ويعرف أين ينعطف وأين يحنى رأسه تحت نتوءات السقف ، ويستطيع أن يقطع الكيلومترين تحت الارض بدون مصباحه ، ويداه فى جيبيه ..!

وأحبه الناس ، واحترمه « ماهوى » عندما رآه يقرأ ويكتب ويتكلم من أمور يجهل هو مجرد وجودها ، وصار « ليفاك » يحب أن يتكلم معه فى السياسة ، وخفت حدة الجفاء بينه وبين « شافال » بسبب

« كاترين » التى كانت الآن تتلقى ملاطفات « شـــافال » علنا بينما تغضى أسرتها عن العلاقة باعتبارها زواجا مؤقتا مؤجلا ومعترفا به ، كما جرت العادة .. !

وكان قد جاء الربيع فأباح حقول القمح للعشاق فى الليالى ، فاذا مر « اتيين » فيها استطاع أن يخمن أعشاشهم المتناثرة بين السنابل الفضة الطويلة ، واذا عاد الى خمارة « راسنير » التى يسكن تحت سقفها جلس أمام كوب من البيرة يكلم جاره « ســـوفارين » الذى يشغل الحجرة الثانية المجاورة لحجرته .. وكان هذا العامل شابا يبدو فى الثلاثين وأشقر نحيلا ذا وجه رقيق يحيط به شـــعره الغزير ولحيته الخفيفة .. ولم يكن فى حجرته شىء غير صندوق الاوراق والكتب .. وكان غامض المنبع قليل الكلام عن نفســـه ، وعمال الفحم بطبيعتهم يتوجسون من الاجانب ، فقيل انه من طبقة أخرى لان له يدين صغيرتين لاتكونان الا لبورجوازى ، وتخيلوا له حادث قتل هرب من عقوبته ، ثم اطمأنوا آخر الامر الى نفسه الهادئة والى كلمة اللاجىء السياسى التى شاعت عنه والتى كانت تشعرهم من نحوه بزمالة فى الالم ...

وكان « اتيين » فى الاسابيع الاولى قد ساءه من الجار الزميل ذلك التحفظ النافر ، ثم عرف فيما بعد أن « سوفارين » هذا كان فى وطنه آخر أبناء أسرة من النبلاء ، وقد هجر دراســة الطب عندما دفعته ميوله الاشــتراكية الى البحث عن مهنــة يدوية هى مهنــة الميكانيكى كى يختلط بالشعب ويعرفه ويساعده كأخ .. وقد هرب من عاصمة القيصرية الروسية بعد محاولة فاشلة لاغتيـــال القيصر كانت نتيجتها أن تبرأت منه أسرته .. وكان رؤساؤه فى المنجم راضين عن كفاءته وصمته ، وكان يحترم المرأة ويعتبرها مجرد زميل من زملاء العمل ، ويعيش بلا امرأة ولا صديق ، بلا رباط يقيده ..

وقال له « اتيين » ذات مساء :

ــ أتعرف ؟ لقد تلقيت خطابا من « بلوشار » ويبدو أن جمعيته فى « ليل » تزدهر ..

فأبدى « سوفارين » رأيه بايجاز :

ــ كلام فارغ ! ..

كان الكلام عن الجمعية الدولية للعمال التى كانت قد تم خلقها فى لندن واندلع صيتها ، وكرر « سوفارين » كلامه :

ـ كلام فارغ ! .. لاحل الا أن تشعل النار فى أربعة أركان المدن ويجتث كل شىء ، ثم ينبت بعد ذلك فوق خرائب العالم المتعفن عالم أفضل ! ..

ضحك « اتيين » من هذه الفوضوية وقال انه على العكس من ذلك يريد أن ينشىء فرعا للجمعية فى « مونتسو » طبقا لتوجيهات « بلوشار » الذى كان سكرتيرا لاتحاد الشمال .. وكان يعتقد أن الاضراب قريب ، فان مسألة الدعائم الخشبية لن تنتهى الا نهاية سيئة ، ولم يبق الا ضغط آخر من الشركة ويثور العمال كلهم .. وهو يرى أن الوقت قد حان فعلا للتفكير فى هذه الامور ..

واشترك صاحب الخمارة فى الحديث فقال ان هذا الحال يجب أن ينتهى ، بطريقة أو بأخرى ، اما بالقوانين والاتفاق الودى أو بالعنف .. ولن ينتهى القرن دون أن تكون قد حدثت ثورة الذين لم ينالوا شيئا من التزايد الفذ للثراء وللرخاء منذ مائة سنة ، منذ قامت ثورة البورجوازية .. وهذه الثورة الجديدة هى التى ستنظف المجتمع من فوق الى تحت وتعيد تنظيمه بمزيد من النظافة والعدالة

لكن « سوفارين » عاد يقول وعيناه هائمتان ، كما لو كان بصوته الخفيض يكلم نفسه :

ـ الاتفاق الودى ؟ رفع الاجور ؟ هل هذا فى الامكان ؟ ... ان الاجور مثبتة عند حد القوت الضرورى ، فاذا انخفضت ماتالعمال ، ثم يعيدها الى الصعود « الطلب » على عمال جدد ، واذا ارتفعت أعادها « العرض » الى الانخفاض ... انه توازن البطون الخاوية ...

وعندما كان ينسى نفسه على هذا النحو ويعرض الامور من وجهة نظره الخاصة ، كان « اتيين » و « راسنير » يظلان قلقين أمام تأكيداته المؤسفة التى لايعرفان كيف يكون الرد عليها .. واستطرد وهو ينظر اليهما فى هدوئه المألوف :

ـ أتسمعون ؟ .. ينبغى تحطيم كل شىء ، والا فان الجوع سينبت من جديد ... لا حل الا الفوضى ، ولا شىء غيرها ! ... لا حل الا أن تستحم الارض بالدم وتتطهر بالحريق ، ثم بعدها

نرى ! ..

وكل مساء كان ينشب حوار كهذا فى الخمارة العارية ، فتصحو الافكار المبهمة فى أعماق « اتيين » وتضطرب وتتمدد ..

وتلتهمه قبل كل شيء حاجة الى المعرفة ، ويستعير الكتب من زميله ، ويعجب بكتاب « الجمعيات التعاونية » الذى يصفه « سوفارين » بأنه هو أيضا كلام فارغ ... كما صار يقرأ بانتظام جريدة « الكفاح » التى تصل الى « سوفارين » من جنيف ...

كان صاحب الخمارة معتدلا ..

وكان سوفارين فوضويا ..

وكان الثالث بينهما يتلمس طريقه بشغف واندفاع ..



— ٩ —

فى الايام الاولى من يولية حدث فى عرق من عروق المنجم صدع خسـف الفحم فى أعمـاق الارض ، فأعلنت الشركة عن مزاد على « مقاولة من الباطن » فى هذا الجزء من المنجم ، وقرر « ماهوى » أن يدخل فى المزايدة وطلب الى « اتيين » أن ينضم اليه فى هـذه المقاولة ، فى مكان « ليفاك » الذى فضل على هذه المخاطرة أن ينتقل الى العمل فى قسم آخر من المنجم

وكان المقطع المعروض فى المزاد واقعا فى الممر الشمالى ، فنزلا اليه وفحصا العرق فاذا هو يبلغ من الرقة حدا كبيرا ، فى أرض متهاوية محشورة ، لكنهما اندفعا مع الرجاء فذهبا يوم الاحد الى المزاد حيث اجتمع أمام منصة المهندس من خمسمائة الى ستمائة عامل جاءوا لمنافسة بعضهم البعض على فتات الشركة .. وارتفع الصياح بأرقام تخنقها فى الحال أرقام أخرى ، وكانوا جميعا يبادرون الى تخفيض السعر ، مدفوعين بقلقهم من اللغط الدائر حول الازمة العامة ورعبهم من البطالة ..

وحصل « ماهوى » ومن معه على حصة تبلغ خمسين مترا ، بعد صراع مع زميل آخر كان مثل « ماهوى » عنيدا ، فجعل كل منهما ينقص من سعر العربة ، مرغما على أن « يأكل » الآخر ..

وجاء يوم الاحد الاخير فى يولية — يوم العيد فى « مونتسو » — فذبحت الارانب التى كانت تسمن منذ شهر ، وخرج الجميع الى البلدة فى طلب شىء من المتعة

وكان « اتيين » فى شغل بفكرة انشاء « صندوق طوارىء » يعتمد عليه العمال فى حالات الانقاذ السريع ، وقد وافق « ماهوى » على الفكرة بعد أن ناقش معه تفاصيلها وتنظيمها ، وسأله أن يحاول اقناع الآخرين .. وأسرفا وسط بهجة العيد فى شرب البيرة بعد أن انضم

اليهما « ليفاك » و « بيرون » ، ثم اقترح « ليفاك » أن يذهبوا الى ملهى « البركان » فدخلوه بعد تردد .. وهناك ، فى أقصى الصالة الضيقة الطويلة ، وفوق منصة من ألواح خشبية ، كانت خمس مغنيات من نفاية بغايا « ليل » يستعرضن عريهن المنفر .. وكان ثمن الواحدة منهن نصف فرنك ، وفى الجمهور غلمان فى سن الرابعة عشرة ، وكل شباب المنجم .. !

ولم يكد يجلس الاربعة حتى استولى « اتيين » على « ليفاك » بدوره ليشرح له فكرة « صندوق الطوارىء » بعناد المؤمنين الجدد فى كل عقيدة ..

ــ كل عضو يستطيع أن يدفع نصف فرنك فى الشهر ، وبأنصاف الفرنكات هذه ينمو رصيدنا فى أربع سنوات أو خمس .. وعندما يكون لدى الانسان مال فانه يكون قويا ، أليس كذلك ؟ .. هه ؟ .. ماقولك ؟ ..

وفى كل الخمارات كان العمال يسكرون ثم يتجمعون حول عربات اليد ومافوقها من لعب وقبعات ومرايا وسكاكين وحلوى ، وهناك رمى بالقوس ، ولعب بالكور الحديدية الصغيرة ، وصراع ديكة ، وسوء هضم من البيرة والبطاطس المقلية ..

وفى النهاية يشتد الزحام فى « كباريه البون جوايه » أمام أكواب البيرة التى تقدمها الارملة « دزير » التى بلغت الخمسين .. وكانت تدعو كل عمال الفحم « أطفالها » وترحب بهم فى صالتها الواسعة المزينة باكليلين من الازهار الورقية متعانقين من زاوية السقف الى زاويته الاخرى ، ومجتمعين فى منتصف المسافة بتاج من الازهار نفسها ، وعلى الجدران صور دقيقة مذهبة للقديس « ايلوا » شفيع عمال الحديد والقديس « كربيان » شفيع عمال الاحذية والقديسة « بارب » شفيعة عمال المناجم ..

وفى الاركان اربعة مصابيح بترولية تنير الراقصين على أنغام الفرقة المكونة من ثلاثة موسيقيين .. وفى الجمهور المتكوم على الكراسى حول الموائد امرأة « ماهوى » وثديها العارى فى فم طفلتها « استيل » وحولها أطفالها « الزير » و « هنرى » و « لينور » ، وامرأة « ليفاك » فى صحبة « بوتلو » الذى يمسك بيديه « أشيل »

و « دزيريه » طفلى « فيلومين » من « زخارى » ... وخلال رقصة البولكا مال « ماهوى » على أذن امراته واقترح عليهـا أن يأخذا « اتيين » ليسكن عندهما ، حتى تعوض نقوده نقود « زخارى » الذى اتفقت الاسرتان فى هذه الليلة على ضرورة زواجه من « فيلومين » آخر الامر ... على حين كان « اتيين » نفسه يقنع « بييرون » هو الآخر بفكرة صندوق الطوارىء ، واقتنع الرجل ووعد بالانضمام ، عندما انزلق لسان « اتيين » فكشف غرضه الحقيقى :

ـ سينفعنا هذا الصندوق فى حالة الاضراب ، اذ نستطيع بذلك المال المدخر أن نقاوم الشركة ونصمد لها !

عندها شحب لون « بييرون » وأطرق قائلا :

ـ أعطنى مهلة للتفكير ! ..

وفى نهاية يوم العيد قبل « اتيين » شاكرا أن يسـكن فى بيت صديقه بعد زواج ابن الاسرة البكر ، وعاد الجميع الى البيت سكارى ، حتى الاطفال ، وتخلف الشبان مع الشابات فى حقول القمح .. !

ولم ينتصف أغسطس حتى كان « اتيين » قد احتل بالنسـبة لـ « كاترين » مكان الاخ الاكبر ـ الذى حصل لزوجته وطفليه على بيت خال من بيوت الشركة ـ فاقتسـم « اتيين » الفـراش مع « جانلان » الى جوار سرير الاخت الـكبرى ، ورأته هى ـ بحـكم الضرورة ـ وهو يخلع ملابسه ويرتديها أمامها ، كما رآها عند النوم وعند اليقظة ، كاسية وعارية ـ شفافة الجسم شقراء أنيمية .. ومثله مثل غيره ، قتلت العادة استحياءه من العرى ، فما ظل منه أو منها مستورا ، حتى الحاجة الطبيعية .. لكن ذهنه كان منصرفا عنها الى حالة التخمر المكتوم التى يجتازها هو وزملاؤه ...

كانت أسئلة عديدة غامضة من كل نوع تعرض له ، وكان ادراكه لجهله يخجله ويحزنه ...

انه لايعرف شيئا ! ..

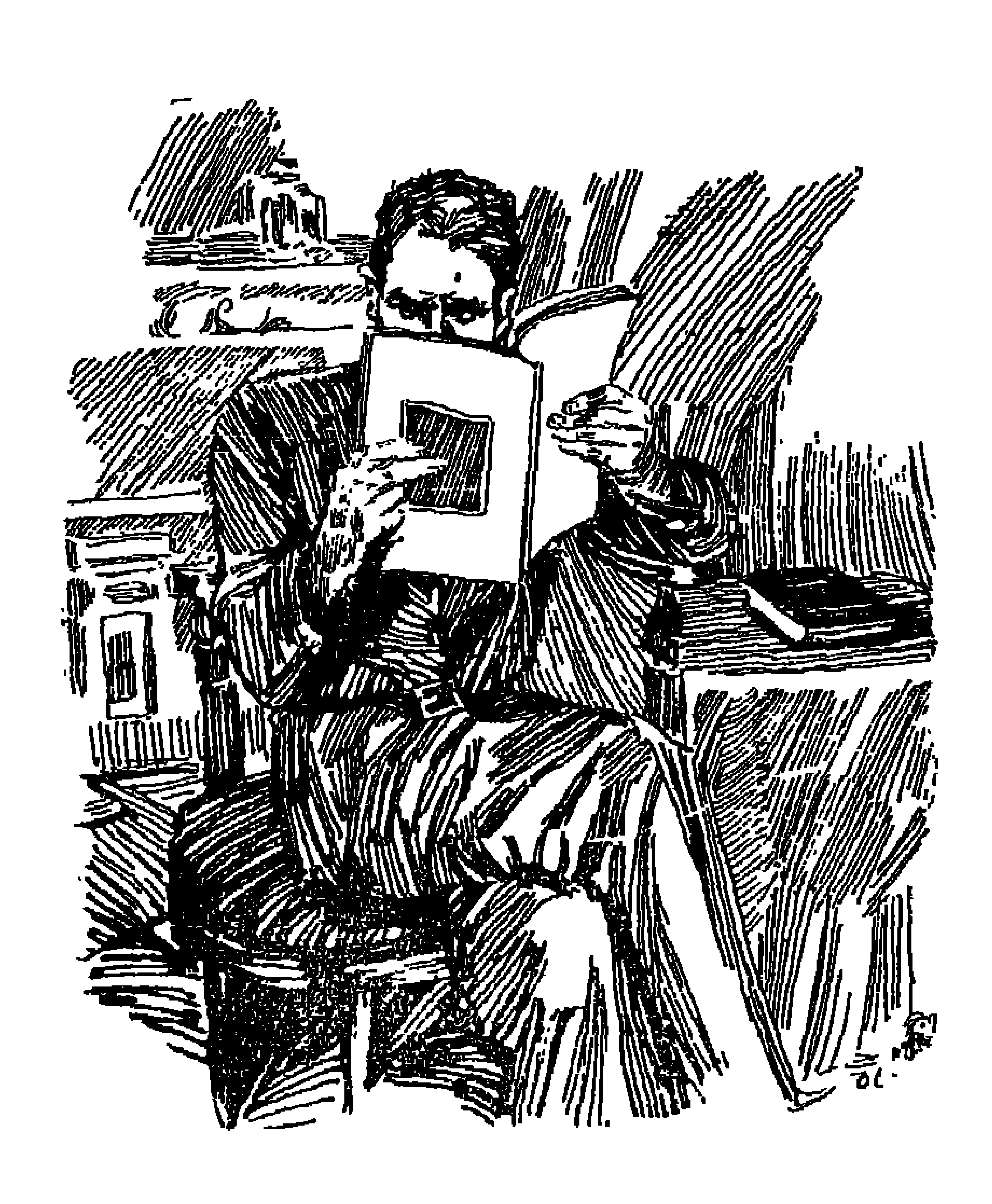
وطلب كتبا أساء هضمها وهيجت نفسه ، ومن بينها كتاب فى الطب عنوانه « صحة عامل المنجم » الذى جمع فيه مؤلفه الطبيب البلجيكى أنواع العلل التى يموت بها شعب المناجم ، وكتب فى الاقتصاد السياسى ذات جفاف تكنيكى غير مفهوم ، وكتيبات فوضوية كانت



.وطلب كتبا اساء هضمها وهيجت نفسه،
ومن بينها كتاب فى الطب عنوانه
«صحة عامل المنجم» ...

تقلب رأسه ، واعداد قديمة من الصـحف ، مطالعات شتى ذهب معها بعض خجله من جهله .. ثم أخذه فى النهاية زهو من يحس أنه يفكر ، وامتزجت فيه المطالب العملية التى يرددها « راسنير » بالعنف التخريبى الذى ينفذه « سوفارين » ، لكن وسائل التنفيذ مبهمة أمامه ، وذهنه يتشتت كلما أراد أن يخرج من تيه مطالعاته ومناقشاته ببرنامج انشائى ..

وقد نقل المناقشة معه الى بيت « ماهوى » فعلمهم كيف يتأخرون عند المائدة بعد العشاء قبل أن يدخلوا مراقدهم .. أهذه حياة ؟ .. فى هذه البيوت ، حيث لايستطيع الانسان أن يغير قميصه دون أن يرى الجيران مؤخرته ؟! .. ان النتيجة الوحيدة لمثل هذه الحياة هى : رجال سكارى وبنات حبالى .. أليس فى الامكان أن نصـــنع بأنفسنا وعلى الارض فردوسنا ؟



— ١٠ —

كان يتكلم والبنت تسمعه وهى تعتمد ذقنها بيديها وتحدق فيه بعينيها الكبيرتين الصافيتين ، وتعيش فى عقيدته التى يفتح بها المستقبل السحرى لحلمه الاجتماعى ..

أليس فى الامكان أن نصنع بأنفسنا وعلى الارض فردوسنا ؟! ..

عندما يتكلم يبدو لها ولغيرها كأن شعاعا من الشمس يطعن ظلمة الافق البغيض فيتهاوى رماد عالم متعفن وتبزغ انسانية شابة مطهرة .. !

أيكون هذا الحلم الجميل قريبا ؟ .. وكيف لنا أن نصنعه ؟ ..

هنا كان « اتيين » يبدو غامضا ويتوه هو نفسه أحيانا فى شروحه وتفسيراته .. !

لكن الاسرة كان يبدو عليها مع ذلك أنها تفهم وتوافق وتقبل الحلول الاعجازية ، بايمان المؤمنين الجدد ، الشبيه بايمان أولئك المسيحيين الاوائل فى العصور الاولى ، الذين كانوا — بايمان مطلق — ينتظرون مشرق مجتمع كامل فوق أنقاض العالم القديم المنهار ..

وفى بعض الاحيان كان الجيران يجيئون للاشتراك فى هذه المناقشات ويخرجون فينشرون صيت الشاب الذى لم يلبث أن أنشأ « صندوق الطوارىء » فى سبتمبر ، وقصره فى البداية على سكان هذه المجموعة وحدها من مساكن العمال ، راجيا أن ينضم اليه بعد ذلك سائر عمال الشركة .. وعندما أختير سكرتيرا للجمعية تكشفت له فى نفسه غرائز ترف كانت هاجعة فى فقره ، فاشترى ملابس حسنة وحذاء جلديا رقيقا ، وصار زعيما يتجمع حوله زملاؤه ، وسرت فى وجهه مسحة وقار ، وزاد ارتفاع الجدار النفسى الذى كان قد بدأ يعلو بينه وبين « كاترين »

وفى يوم صرف الاجور ثارت ثائرة العمال أمام اعلان معلق فى مكتب

الصراف يتضمن اخطارا من الشركة الى جميع عمالها بأنها ازاء قلة العناية بالدعامات الخشبية وعدم جدوى الفرامات العقيمة قد اتخذت قرارا بتطبيق طريقة جديدة لدفع الاجور ، فهى منذ الآن ستدفع أجر عملية التدعيم بالخشب على حدة ، بالمتر المكعب من الخشب المستخدم ، أما سعر الفحم المستخرج فسيخفض بنسبة خمسين سنتيما الى أربعين ، حسب طبيعة طبقات المنجم وبعدها ، ورغبة من الشركة فى اتاحة الفرصة للجميع للاقتناع بالمزايا الجديدة ، فانها تنوى تطبيق هذا النظام ابتداء من يوم الاثنين أول ديسمبر ..

وكان كل مافى صندوق العمال حتى ذلك الوقت ثلاثة آلاف من الفرنكات قال « راسنير » انها لاتكفى الخبز وحده ستة أيام ، فنهره « اتيين » واتهم حماسته للاضراب والتفت نحو « سوفارين » وسأله :

ـ وأنت ؟ .. ماقولك ؟ ..

وكان « سوفارين » هو الوحيد القادر على تحليل الموقف : فان الشركة وقد مستها الازمة العامة مضطرة الى تخفيض نفقاتها ، وعلى العمال بالطبع أن يضغطوا على بطونهم ، فهى تعمل على تخفيض أجورهم بكل حيلة متعللة بأسباب واهية ، ولعلها هى التى ترحب الآن باضراب يخرج منه « شعبها » العامل مروضا وأقل أجرا .. ان صندوق الطوارىء الجديد هذا قد أقلقها ، بينما الاضراب يخلصها من ذلك الصندوق ويفرغه قبل أن يستفحل ويشكل تهديدا للمستقبل .. أما الاضراب فهو عنده كلام فارغ ، ومع ذلك فانه يحبذه الآن مادام فيه مصلحة ، لكنه يعلن فى الوقت نفسه أن هذه الوسائل البطيئة تحتاج ألف سنة لتجديد العالم ، فأبدأوا بأن تنسفوا لى هذا الجحيم الذى تموتون فيه كلكم ! ..

ان هدف الشركة واضح ، فهى تريد ببساطة أن تحقق وفرا من قوت العمال ، وقد استدعى « ماهوى » من مكتب الصراف الى مكتب « السيد السكرتير العام » الذى قال له ان الشركة تدرس الآن احالة والده « بون مور » الى المعاش ـ معاش المائة والخمسين فرنكا ـ ثم انتقل السكرتير العام الى موضوع آخر ، فاتهم العامل المرتبك الواقف أمامه بالاهتمام بالسياسة ، ولمح الى العامل الذى يسكن

عنده والى صندوق الطوارىء ، ثم زوده بنصـــيحة آخـــيرة هى ألا « يورط نفسـه » فى جنونيات ، هو الذى يعد واحدا من خيرة عمال الشركة .. واراد « ماهوى » المذهول أن يحتج لكنه عجز الا عن كلمات متقطعة قبل أن ينسحب خارجا ..

وفى الخارج انفجر أمام « اتيين » الذى كان ينتظره :

ـ يالى من جبان ! .. كان يجب أن أرد ! ..



— ١١ —

ـ سيكون للشركة الاضراب الذى تريده ! ..

تقرر الاضراب فى اجتماع بخمارة « الافنتاج » دون أن يقاومه « راسنير » كما اعتبره « سوفارين » خطوة أولى مع رفضه المساهمة فيها ، وفى انتظار الصدام مر أسبوع استمر العمل فيه مستريبا وعابسا ..

ثم جاءت لحظة رج المنجم فيها هزيم رعد بعيد ، فاندفع الجميع فى وثبة من الاخاء القلق ، ورقصت أضواء المصابيح فى أيدى العمال وهم يفرون من الموت على طول الممرات ، وظهورهم منكسرة ، كما لو كانوا يتواثبون على أربع ، وهم يتساءلون دون أن يبطئوا فى الركض أين وقع هذا الانهيار الجديد ...

كانت الدعامات الخشبية قد لانت فى أحد المواضع الحساسة تحت تأثير الرشح المستمر للماء ، فحدثت فى ذلك الركن من أعماق المنجم طقطقة فظيعة ، ثم وقع الانهيار ... وبعد دويه الرهيب ساد ذلك السكون العظيم الذى يتلو الفاجعة وتصاعد غبار كثيف من مكان الحادث الى الممرات ، حيث كان العمال يهبطون من كل مكان فى عماية واختناق وفزع ..

وكان السقف قد انهار فوق مسافة لاتزيد عن عشرة أمتار ، فالخسارة هينة ، لكن قلوب العمال انقبضت عندما خرجت من الردم حشرجة موت ، وعاد العمال مسرعين نحو نجدة رفاقهم الذين حصرهم الانهيار فى داخل أحد الممرات ..

واقبل الصبى « ببير » وقد تخلى عن عرباته وهو يركض مكررا أن « جانلان » تحت الردم ، فانقض « ماهوى » و « زخارى » و « اتيين » على الردم فى نقمة مستميتة ، ووقفت « كاترين » و « ليدى » و « موكيت » يعولن فى رعب ... وراح العمال يلصقون

آذانهم بالردم ويكلمون ذلك المدفون الذى يرسل حشرجته المستمرة الرتيبة ويسألونه عن اسمه فلا يظفرون برد غير الانين ...

وبالمعول والجاروف اندفع العمال يهاجمون الردم حتى ظهرت لهم قدم انسان ، فتركوا عند ذلك المعاول وأخذوا يرفعون الردم بأيديهم كاشفين عن أعضاء ذلك الزميل الواحد بعد الآخر ، فلما عرفوه تنقل اسم « شيكو » على كل الشفاه ، وكان مايزال ساخنا ، وقد قصمت صخرة عموده الفقرى.. أما «جانلان» فكان مغمى عليه وقد تحطمت ساقاه ، لكن النفس يتردد فى صدره ...

وكان أبوه هو الذى حمله بين ذراعيه وسط عويل البنات ..

وقاد الحصان « معركة » موكبا تحت الارض من عربتين حملت الاولى جثة « شيكو » التى يسندها « اتيين » وجلس « ماهوى » فى الثانية حاملا فوق ركبتيه غلامه الغائب عن الوعى وقد غطى بخرقة من صوف انتزعت من أحد أبواب التهوية .. ووراء العربتين سار ذيل طويل من العمال كأنه خمسون ظلا تمشى صفا ..

وظل هذا الموكب يمشى تحت الارض نصف ساعة قبل أن يبلغ نور النهار ليجد فى انتظاره طبيب الشركة الدكتور « فندرهاغن » الذى أمر فى الحال بنزع الملابس عن الميت وغسله قبل فحصه .. ثم أعلن أن رأس « جانلان » سليم وكذلك صدره ، والمسألة كلها فى ساقيه .. وخلع الدكتور بنفسه ملابس الطفل فظهر جسم صغير مسكين فى ضمور جسم الحشرة ، ملوث بتراب أسود .. وعندما غسلوه هو أيضا كان يبدو أنه يزداد نحافة تحت دعكات السفنجة ـ ذرية جنس من البؤساء ـ وظهرت الجروح فى فخذيه ...

وفى هذه اللحظة ظهر المهندس « نيجرل » والاسطى « دانسايير » وانفجر الاول فى غضب مشيرا الى أن السبب دائما هو ضعف الدعامات الخشبية فى المنجم .. ألم يكرر مائة مرة أن الامر سينتهى بأن يفقد بعض العمال حياتهم ؟ .. كيف الحال الآن ؟ ... ألم تشبعوا اذن من الكلام عن الاضراب بسبب اصرار الشركة على زيادة تدعيم سقوف الممرات ؟ .. وأسوأ مافى الامر أن الشركة هى التى ستدفع ثمن اصلاح ماتحطم ! .. ويالسرور السيد المدير العام عندما يبلغه الخبر ! ..

وتكون موكب جديد سارت فى طليعته عربة من عربات العفش تحمل جثة العامل الميت ووراءها محفة تحمل الفلام الجريح ، ثم ذيل الناس .. وصعد هذا الموكب ببطء فى المرتقى المؤدى الى مجموعة المساكن ، فى غبش غروب يدفن السهل الواسع كله فى كفن ساقط من سماء غبراء كدرة !

واستقبلت النساء الموكب فى رعب ، متسـائلات أمام أى بيت ستقف عربة الموت ..

وعندما وضعت المحفة أمام بيت « ماهوى » ورأت امرأته ابنها حيا ومهشم الساقين ومعه الطبيب ملأت دنياها صراخا ، على حين كانت صرخات أخرى تخرج فى نواح ممزق من بيت مجاور ، حيث كانت امرأة « شيكو » وأطفاله يبكون فوق جثته ..

وبعد ثلاثة أسابيع خرج «جانلان» من هذه المحنة أعرج ، وصرفت الشركة لاهله ـ بعد التحقيق ـ عونا مقداره خمسون فرنكا ، كما وعدت بالبحث عن عمل خارج المنجم لذلك الاعرج الصغير .. !

واقترب أول ديسمبر وهو الموعد الذى كانت الشركة قد حددته لتنفيذ تهديدها بتخفيض الاجور ، وفى هذه الاثناء حجز « شافال » حبيبته « كاترين » فى بيته ـ فى نوبة من نوبات غيرته من « اتيين » الذى ينام معها تحت سقف واحد ـ وأعلن أنه هجر العمل فى منجم « فورو » الى عمل آخر فى منجم « جان بارت » الذى يملكه السيد « دينولان » وأنه أخذ معه « كاترين » أيضا .. وفى البداية تكلم « ماهوى » عن عزمه على الذهاب الى بيت « شافال » فى « مونتسو » لصفعه ولاعادة الابنة الضالة بركلات فى مؤخرتها ، ثم أذعن للواقع قائلا ان من المستحيل قمع البنـات وأن الحل الحسن هو انتظار الزواج فى هدوء .. أما الام فلم تأخذ الامر هذا المأخذ السـهل وانطلقت تحدث « اتيين » الذى كان يسمعها فى صمت وهو شاحب الوجه :

ـ أنا نفسى كنت حبلى عندما تزوجنى أبوها ، لكنى لم أهرب من بيت أهلى ، فانها لقذارة أن تحمل البنت أجرها قبل الاوان الى رجل لاحاجة له بأجرها .. كانت حرة تذهب كل مساء الى حيث تريد فلماذا لم تنتظر حتى أزوجها بنفسى بعد أن تكون قد عاونتنا فى هذا

الضيق ؟

كانت المرأة تتكلم وابنتها الصغيرة الحدباء تؤمن على كلامها بهزات مؤيدة من رأسها ، بينما تتساءل الام كيف يعيش سبعة أشخاص ــ اذا لم تحسب الرضيعة ــ على فرنكات الاب الثلاثة ؟ .. أليس خيرا من هذا أن تقذف الاسرة كلها بنفسها جماعة الى القنال ؟

لكن زوجها تدخل فى الكلام قائلا بصوت يمزقه الانهيار المعنوى :

ــ أى جدوى من تعذيب نفسك ؟ لعل لنا مخرجا !

فرفع « أتيين » رأسه وقال وعيناه تائهتان فى رؤياه :

ــ آه ! .. لقد آن الاوان ! ... لقد آن الاوان ! ...



- ١٢ -

انفجر الاضراب فى صباح يوم الاثنين ، وكان ذلك اليوم موعد وليمة الفداء التى يقيمها « آل هينبو » للسيد « جريجوار » وزوجته وابنته « سيسل » والتى كان غرض « مدام هينبو » منها أن يتم الانسجام بين « سيسل » والمهندس « بول نيجرل » والتفاهم على زواجهما ..

وكان العمال قد احتفظوا بهدوئهم عندما طبقت الشركة تعريفة الاجور الجديدة ولم يتقدم أحد منهم بأى مطلب فى يوم صرف الاجور فى نهاية فترة الخمسة عشر يوما ، فاعتقدت الشركة أن التعريفة الجديدة قد قبلت ، ولذلك كانت الدهشة عظيمة عندما صدر فى ذلك الصباح من العمال اعلان الحرب ، الذى كان تكتيكه فى هذه المرة يشير الى قيادة فعالة ..

وفى الساعة الخامسة أيقظ « الاسطى دانساير » السيد « هينبو » المدير العام ليخطره بأن عمال منجم « فورو » جميعا لم ينزلوا للعمل وأن المجموعة ٢٤٠ من مساكن العمال تنام نوما عميقا وقد أغلقت نوافذها وأبوابها ، ثم جاء رسل يهرعون وانهالت البرقيات ، واتضح للمدير العام قبل مشرق الصبح أن التمرد لم ينحصر فى ذلك المنجم وحده بل انتشر فى مناجم « ميرو » و « كريفكور » و « مادلين » ، أما فى منجمى « لافكتوار » و « فيترى كانتل » فقد نزل ثلثا العمال فقط ، وانفرد منجم « سان توماس » بنزول جميع عماله ...

ونشط « هينبو » فأملى برقيات الى محافظ الاقليم والى مديرى الشركة الكبار سائلا عن الاوامر والتعليمات ، كما أوفد « نيجرل » للقيام بجولة فى المناجم المجاورة ، للحصول على معلومات دقيقة .. وظل مثابرا على نشاطه حتى خطرت له الوليمة فجأة ، وعندما أوشك أن يرسل الحوذى لاخطار « آل جريجوار » بضرورة تأجيل الزيارة أوقفه نقص فى الارادة !

هو الذى جهز ميدان حربه مع العمال بدقة عسكرية وببضع عبارات موجزة ، تردد أمام قرار صغير قد يكون لزوجته فيه رأى آخر ! ..

وعندما صعد اليها حيث كانت تتزين فى مخدعها بالطابق العلوى قالت له فى حزم حاسم :

ـ مادخل اضرابهم بنا ؟ .. اننا لن نصوم ، اليس كذلك ؟! ..

وأصرت على اقامة الوليمة فى موعدها ، اصرار من يعلم أن كلمتها هى العليا فى هذا البيت .. !

كانت ضيقة النفس دائما بهذا الزوج الذى ترى أنها فجعت فيه .. عندما تزوجها كانت هى ابنة أحد أساطين صناعة الغزل فى « آراس » وكان هو شابا فقيرا حديث التخرج من مدرسة المناجم ، فتنقلت معه فى عدة شركات كان تقدمه فيها بطيئا ، لقلة طموحه .. وقد خانته من قبل مرتين فى مدن أخرى ، مرة أولى بدون علمه ، ومرة ثانية بعلمه .. وكانت تتهمه الآن بأنه ضحى بها عندما جاء بها الى هذا البلد القفر الموحش فى أقصى الشمال ، بفحمه وسواده وعماله الذين يقرفونها ويخيفونها ، من أجل مرتبه البالغ أربعين ألف فرنك .. ولم يهدىء من ثائرتها فى السنتين الاخيرتين الا وصول « بول نيجرل » الى « مونتسو » .. وكانت أمه الارملة تعيش فى « أفينيون » على دخل هزيل ، وقد قنعت طويلا بالخبز والماء كى تدخله مدرسة الهندسة العليا ، ثم جاء به عمه ـ زوجها ـ ليعمل مهندسا فى منجم « فورو » وصارت له فى بيت عمه و « عمته » حجرة خاصة ، فهو « ابن البيت » ... وببساطة خانتمعه زوجها ، وهى الآن بعد سنتين من بدء العلاقة تبحث له عن زوجة غنية مثل « سيسل جريجوار » لا لشىء الا لتبعد عنها اشتباه زوجها فيهما !

ونزل السيد المدير العام من عند زوجته التى كان يجد من نفورها الصريح منه منذ سنوات مايردعه اذا همت بها رغبته ، فلها مخدعها واستقلالها ، فالتقى بابن أخيه عائدا من جولته التفتيشية ، وعلم منه أن العمال سيوفدون اليه مندوبين للتفاهم ، وقبل أن يضيف المهندس شيئا كان صوت « المدام » قد نادى ، من فوق ، فى طراوة :

ـ أهذا أنت يابول ؟ أصعد بأخبارك عندى ! ..

وجلس المدير فى الدور الارضى يفض البرقيات وينتظر الضيوف.

وعندما جاء الضيوف كانوا يحملون معهم تفاؤلهم بانتهاء ذلك الاضراب فى هدوء ، لكن « دينولان » عندما أقبل بعد قليل كان قلقا متوجسا ، وقد جاء من منجمه البعيد على حصان راكض :

ـ كل العمال عندى نزلوا هذا الصباح لكنى لست مطمئنا ، فان المسألة يمكن أن تتسع ... أين أنتم من المسألة ؟

وعلى المائدة قالت « المدام » لضيوفها بابتسامة :

ـ ستعذروننى ! ... كنت أريد أن أقدم لكم محارا ، من الشحنة التى تصل كل يوم اثنين الى « مارشيين » وكانت نيتى أن أرسل الطباخة بالعربة لشرائه ، لكنها خافت أن تضرب بالحجارة ! ...

كانت قاعة الاكل فاخرة تتلألأ فيها الفضية ، وكان الاكل نفسه ممتازا ، لكن المرح المغتصب الذى كان يدور حول المائدة كان يخفى وراءه خوفا مكتوما تفضحه نظرات خاطفة غير ارادية تلقيها العيون نحو الطريق الظاهر من وراء النوافذ ، كما لو أن عصبة من الجياع ـ جوع الموت ـ تتربص فى الخارج بالمائدة ..

وبينما كانت الاطباق المتتابعة توضع وترفع ، دخل « الاسطى دانسايير » وقال ان وفد العمال أقبل ، وقالها وهو واقف على بعد خطوات من المائدة ، ثم خرج ..

وبين الاوراق التى تلقاها المدير رسالة حرص على ان يقرأها بصوت عال على ضيوفه ، وكانت من العامل « بييرون » وكان يقول فيها بعبارات مليئة بالاحترام أنه يجد نفسه مضطرا الى الاضراب مع الرفاق حتى لايسيئوا معاملته ، وأنه لم يستطع أيضا أن يرفض عضوية الوفد ، رغم استنكاره لهذه الخطوة ..

وكان رأى المدير أن العمال سيفشون الحانات فى أسبوع من الكسل ، أو أسبوعين على الاكثر ، مثل المرة السابقة ، ثم يقرصهم الجوع فيعودون الى المناجم صاغرين .. لكن « دنيولان » المتشائم هز رأسه قائلا ان العمال فى هذه المرة يبدون أكثر تنظيما ، وعندهم صندوق الطوارىء ..

قال المدير العام فى وقار :

ـ ثلاثة آلاف فرنك لن تذهب بهم بعيدا ! .. وزعيمهم ـ الذى أظن أنه زعيمهم ـ عامل كفء فى الحقيقة ، وسيحزننى أن أسلمه بطاقته فى ساعة فصله ، كما سبق لى أن فعلت مع « راسنير » .. ومهما يكن من أمر فان نصف الرجال سيعودون الى العمل خلال أسبوع ثم لاتمر خمسة عشر يوما حتى يكون الآلاف العشرة تحت الارض !

وامام الرعب المسيطر على « دنيولان » خطرت للمدير فكرة : ان الاضراب قد تكون فيه مصلحة ، فاذا خرب منجم هذا الجار صار من السهل على الشركة أن تشترى منه ملكية منجمه بسعر منخفض ! .. هذه هى الطريقة المثلى لاستعادة رضاء المديرين الكبار عنه بعد الاضراب ، فهم منذ سنوات يحلمون بامتلاك منجم هذا الرجل الذى يأبى أن يبيعه ! ...

وكانوا قد وصلوا الى القهوة عندما جاءت الوصيفة مذعورة تجرى :

ـ سيدى ! ... سيدى ! ... هاهم ! ...

ـ ادخليهم فى الصالون ..

ونهض بعد هنيهة متثاقلا ، وظل ضيوفه حول المائدة صامتين وآذانهم مرهفة الى أصداء همهمة الرجال فى الصالون القريب .. فى انتظار النتيجة !



— ١٣ —

كان من رأى « اتيين » أن يتولى « ماهوى » الكلام لما له من مكانة عند الشركة وعند زملائه ، لكن الرجل تردد وهو مأخوذ :

ــ لكنى لن أعرف أبدا .. سأقول سخافات ..

ــ ستقول ماتحسه ، وسيكون هذا حسنا جدا ..

وفى الموعد قصد الاربعة « ماهوى » و « اتيين » و « بييرون » و « ليفاك » حانة « راسنير » حيث كان مندوبو المناجم الاخرى يتوافدون فى جماعات صغيرة ، حتى تم اجتماع أعضاء الوفد العشرين ، فحددوا شروطهم التى سيعارضون بها شروط الشركة ، ثم دخلوا « مونتسو » فى هدوء ..

وأدخلتهم الوصيفة فى صالون بيت المدير ، فظلوا واقفين وقد ملأ الاثاث نفوسهم بالاحترام ..

ودخل المدير العام عليهم :

ــ آه !.. ها أنتم !.. انتم تتمردون على ما يظهر ..

وقطع كلامه كى يضيف فى صلابة مؤدبة :

ــ اجلسوا ، فما أطلب شيئا أحسن من التفاهم فى الكلام !

بعضهم جلس ، لكن الآخرين صدهم الحرير الموشى ، ففضلوا أن يظلوا واقفين ..

وساد سكون كان الرجل خلاله يحاول أن يتعرف على هذه الوجوه .. عرف « بييرون » الذى كان يتوارى فى الصف الاخير ، ثم توقفت نظرته عند « اتيين » الذى كان جالسا فى مواجهته :

ــ لنر ماذا عندكم ؟..

كان يتوقع أن يكون المتكلم هو « اتيين » فأدهشه أن يرى «ماهوى» يتقدم .

ــ كيف!.. أنت ؟!.. العامل الكفء الذى كان دائما مثال التعقل!..

احد قدماء عمالنا من أهل مونتسو !.. الذى تشتغل أسرته « تحت » من أول ضربة معـــول !.. آه .. انى ليحزننى يا « ماهوى » أن تكون أنت على رأس الساخطين !..

بدأ « ماهوى » كلامه بصوت متردد :

ـ انما اختارنى زملائى ياسيدى المدير لانى هذا الرجل الهادىء الذى لا مأخذ عليه .. وان هذا يجب أن يثبت لك أن حركتنا ليست تمردا صاخبا سىء النية .. نحن نريد العدالة فقط .. تعبنـا من الموت جوعا ..

لكن صوته لم يلبث أن توطد ، فرفع عينيه بعد أن كانتا منكسرتين واستمر فى كلامه وهو ينظر الى المدير العام :

ـ من رأينا أنه حان الوقت لاصلاح الامور .. حتى يكون لنا على الاقل خبز فى كل الايام !.. أنت تعرف جيدا أننا لا نستطيع أن نقبل نظامكم الجديد .. واذا كان صـحيحا أننـا لا نحسـن عمليـة الدعم بالخشب فان السبب فى أننا لا نعطى هذا العمل كفايته من الوقت هو أن يوميتنا فى هذه الحالة ستنقص زيادة على نقصانها .. هى التى لا تكفى الآن قوتنا .. ادفعوا لنا أكثر ونحن نشتغل أحسن .. ولا يوجد هناك حل آخر ممكن .. لكنكم ابتكرتم شيئا اخر لا يمكن أن يدخل رءوسنا ، فخفضتم سعر العربة وزعمتم أنكم تعوضون هـــذا التخفيض بدفع أجر العمل فى التدعيم على حدة .. ولو أن هذا كان صحيحا لكان سرقة منا ، لان العمل فى التدعيم سيأخذ منا وقتـــا أطول .. لكن ما يحنقنا أن هذا ليس صحيحا ، فالشركة لا تعـــوض شيئا بالمرة ، انها فقط تضع ببســـاطة سنتيمين عـن كـل عربة فى جيبها .. هناك الحقيقة !

وارتفعت همهمات من المندوبين الآخرين :

ـ اجل !.. أجل !.. هى الحقيقة ..

واشار المدير اشارة عنيفة دلت على أنه يريد ان يقاطع ، لـــكن « ماهوى » قطع الكلام على المدير .. الآن كان قد اندفع وطاوعتــه الكلمات .. كانت تصحو فى أعماقه أشياء متراكمة لم يكن يعرف حتى انها موجودة هناك .. كان « يقول » بؤسهم ، كلهم ، العمل القاسى، الحياة الخشنة ، صراخ النســـاء والاطفال من الجـوع فى البيت ،

الغرامات ، التخفيضات .. ثم ختم كلامه :

ــ لذلك ياسيدى المدير جئنا نقـــول لك أنه مادامت المســألة مسألة موت فنحن نفضل أن نموت من عدم العمل ، لان التعب سيكون بذلك أقل !.. لقد تركنا المناجم ولن نعود الى النزول فيها الا اذا قبلت الشركة شروطنا .. هى تريد ان تخفض أجر العربة وان تدفع أجــر عملية التدعيم على حدة ، أما نحن فاننا نريد أن تظل الاوضاع كمـا كانت ، ونريد أيضا أن تزاد خمسة سنتيمات عن كل عربة فى أجرنا والآن عليك أنت أن تحدد موقفك من العدالة ومن العمل ..

وارتفعت أصوات كثيرة :

ــ هو هذا .. لقد قال فكرتنا جميعا .. نحن لا نطلب الا الحق ..

وآخرون وافقوا بهزة من الرأس دون ان يتكلموا ، واختفى ســحر الحجرة الفاخرة ولم يعودوا يحسون السجادة الثمنية تحت أقدامهم، فهم يسحقونها تحت أحذيتهم الثقيلة ..

قال المدير عندما عاد السكون :

ــ دعونى أرد !.. قبل كل شىء ليس صحيحا أن الشركة تكسب سنتيمين عن كل عربة .. لنر الارقام ..

وتبعت ذلك مناقشة غامضة حاول المدير خلالها أن يضرب بعضهم ببعض ، فنادى « بيبرون » الذى تملص من الحديث بصعوبة .. ثم ترك مسألة أجور العربات ووسع الموضوع فجأة :

ــ لا !.. اعترفوا بالحقيقة !.. انتم تطيعون تحريضات كريهة !.. ولست فى حاجة الى اعترافات أحد كى أعلم هذا !.. انى أرى جيدا أنهم قد غيروكم ، أنتم يامن كنتم فيما مضى مثال الهدوء !.. أليس كذلك !.. ألم يعدوكم بمزيد من الخبز ، وقيل لكم أن دوركم قد جاء فى الســيادة ؟

كان يتكلم وهو يحدق فى « اتيين » محاولا أن يستفزه ويخرجه من سكوته ، فاشتبك به الشاب والتقطا وحدهما من تلك اللحظة حبــل الحديث .. قال الشاب فى هدوء ان الامر متوقف الان على موقف الشركة ، فرد عليه المدير فى خشونة :

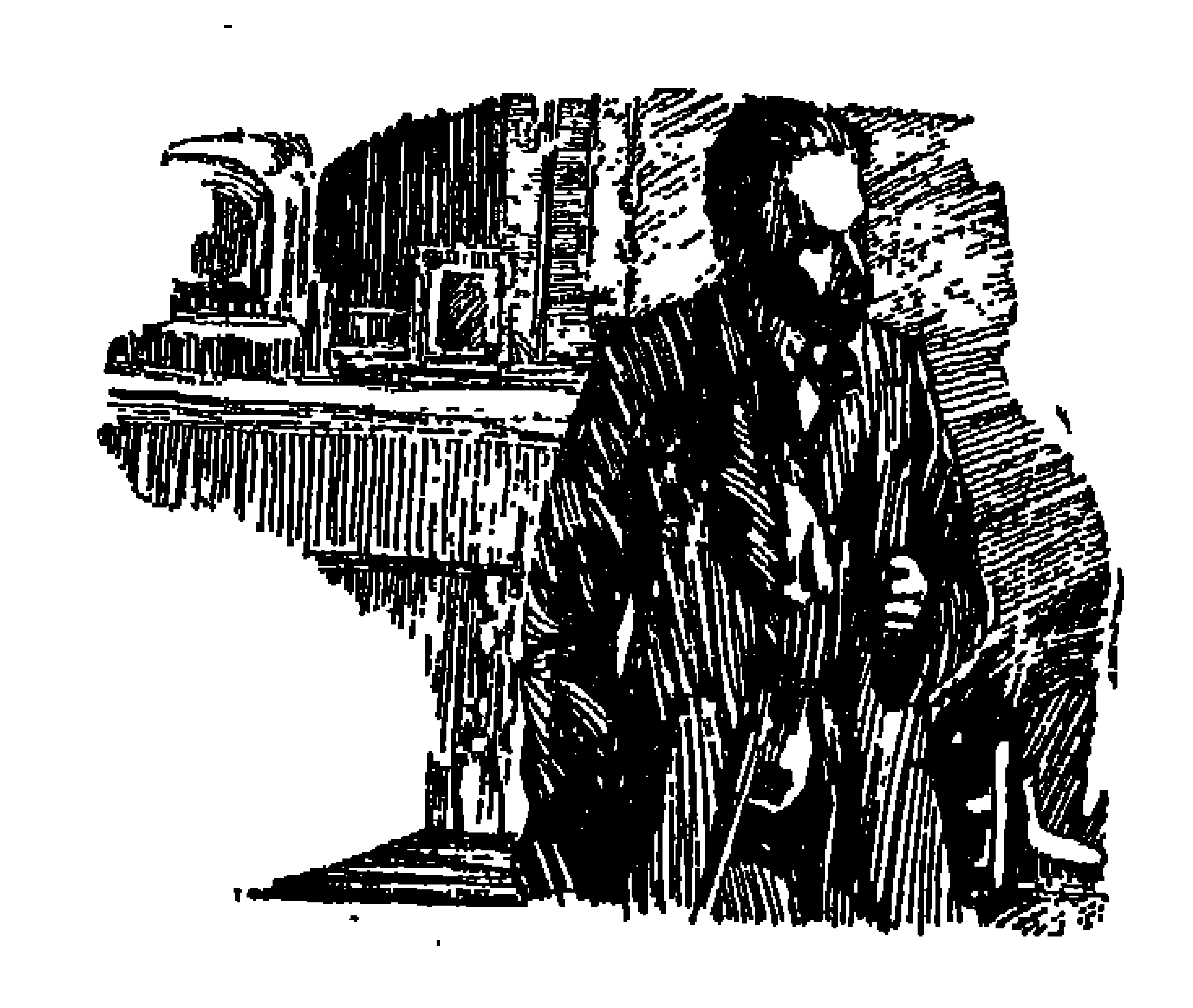
ــ أنت صديق « راسنير » طريد الشركة ، ذلك الاشتراكى !.. وهو بكل تأكيد الذى دفعك الى انشاء صندوق الطوارىء هــذا ..

كنا نتحمله راضين لو انه كان نوعا من الادخار ، لكننا نشتم منـــه سلاحا ضدنا .. هو فى حقيقته احتياطى للدفع نفقات الحرب ..ومن واجبى ان أضيفه أن الشركة تنوى ان يكـون لهـا اشراف عـلى ذلك الصـــندوق ..

ابتسم العامل الشاب عند الجملة الاخيرة ، وأجاب ببساطة :

ـ هو اذن مطلب جديد ! .. لماذا تشغل الشركة نفسها بنا الى هذا الحد ؟!.. ان مانرغب فيه هو أن تتركنا فى حالنا وتتصرف هى فى الواقع بعدل وتعطينا حقنا ، بدلا من لعب دور العناية الالهية !.. حقنا ، ربحنا الذى توزعه الشركة على نفسها !.. أهو شيء شريف ان تترك الشركة عمالها فى كل أزمة يموتون من الجوع ، لانقاذ حصص المساهمين ؟ .. مهما قال السيد المدير فان النظام الجديد هو تخفيض متنكر للاجور ، وهذا هو ما يثيرنا .. أن تقتصد الشركة من مصروفاتها عندما تريد التوفير على حساب العامل وحده .. !

ـ آه !.. هانحن وصلنا !.. كنت أنتظره ، هذا الاتهام بتجـويع الشعب والتنعم بعرقه !.. كيف يسعك ان تقول سخافات كهـذه ، أنت الذى ينبغى أن يعرف المخاطر العظيمة التى تتعرض لها رءوس الاموال فى الصناعة ، فى المناجم مثلا ؟ .. أتعتقدون أن الشركة لاتخسر كما تخسرون فى الازمة الحالية ؟ .. لكنكم لاتريدون أن تسمعوا ، لاتريدون أن تفهموا ! ..



بشجاعة هادئة ، بثقة مطلقة ، بايمان دينى الطابع والجوهر ، كانوا شعبا صغيرا وعد بعصر العدالة .. فهو على استعداد لاحتمال العذاب من أجل غزو الهناء الموعود ، وما من شكوى سمعت فى مواجهة الايام الفظيعة التى كانت تبدأ ، بل كانوا يكادون يلمسون العصر الذهبى المأمول ، ويواجهون الواقع المر بالامل وبازدراء مبتسم ، وهذا الايمان كان بدلا من الخبز يدفىء البطن ، وحتى دوار الجوع كان يتشكل فى صورة نشوة روحية طامعة فى حياة أفضل ، فى انسانية ارقى ، تلك النشوة القديمة فى الكائن البشرى التى كانت تلقى الى السباع قديما بالشهداء ..

وكان مندوبو العمال قد قالوا للمدير العام عندما وقف ليصرفهم فى نهاية المقابلة الفاشلة فى صالون بيته :

ـ اذن يا سيدى هذا هو ما تجيب به ‥ سنذهب الى الاخرين فنقول لهم انك ترفض شروطنا ..

هنا صاح المدير :

ـ أنا يا رجل يا طيب ؟! ‥ أنا لا أرفض شيئا ! ‥ أنا أجير مثلكم يتلقى أوامر ، ومهمتى الوحيدة هى السهر على حسن تنفيذها .. انما قلت لكم ما اعتقدت أن من واجبى ان أقوله لكم ، لكنى لا أعطى لنفسى حرية اتخاذ قرار ‥ وسوف أخطر الادارة العامة بمطالبكم ، ثم أنقل لكم الرد ‥

كان قد عاد الى الكلام بلهجة الموظف الكبير المهذب قليل السلطة ، فنظروا اليه فى ريبة متسائلين من أين جاء هذا الالعبان واية مصلحة يمكن أن تكون له فى الكذب ، وما يمكن أن يسرقه بوضع نفسه بينهم وبين أصحاب العمل الحقيقيين !.... لعله من أهل الدسائس والمناورات ! ‥‥ وقالوها له فى وجهه ‥‥قال له « اتيين »المسيطر على أعصابه :

ـ يؤسفنا ألا نتمكن من الدفاع عن قضيتنا بأنفسنا ، حتى نفسر للمسئولين أشياء كثيرة لابد أن تفوتك اذا توليت أنت الكلام.. لو اننا كنا نعرف فقط لمن نتوجه ؟

ـ هكذا !.. مادمتم لاتثقون بى فعليكم ان تذهبوا بأنفسكم الى هناك ..

هناك أين ؟ .. لابد أن ذلك « الشيء » الذى يضغط عليهم موجودفى باريس .. ماذا يكون ؟ من يكون ؟ من الاله المجهول المقعى فى محرابه والذى يحسون ثقله من بعيد على عشرة آلاف نفس بشرية ؟ ماهذه القوة التى تواجههم من وراء المدير وهو يتكلم ، مختبئة وهى توحى اليه وحيها ؟ ..

وخرجوا فى شيء من التراخى ، وعاد المدير الى حجرة المائدة ليجد ضيوفه جامدين حيث تركهم أمام الكئوس .. ولخص لهم الموقف بكلمتين ، وقيل أن من المدهش حقا ألا تكون هناك قوانين تحرم على العمال ترك عملهم !.. وأخيرا نادت زوجة المدير العام الخادم وقالت له :

ـ « هيبوليت » ! قبل أن ننتقل الى الصالون افتح نوافذه كلها وغير الهواء !!...

واستمر الاضراب فجاء محافظ « ليل » وملأ رجال الجندرمة الطرقات ، ثم انسحب الجميع عندما لمسوا هدوء المضربين ، الذين قاطعوا الحانات وعاونتهم نساؤهم فى التدبير ، وحتى عصابات الغلمان كانت تتبادل الصفع والعبث بغير ضجة ، وفى حكمة من يفهم الموقف .. وكان « اتيين » قد وزع الآلاف الثلاثة من الفرنكات على البيوت، كما وصلت من جهات متعددة مئات من الفرنكات جمعت بالاكتتاب ، ثم نضبت بعد ذلك الموارد وظهر شبح الجوع ..

وتعرض الايمان والثقة والشجاعة لامتحان الجوع ، وكان التاجر « ميجرا » قد وعدهم بقرض لكنه غير رأيه بايعاز من الشركة التى يتلقى منها الاوامر ..

وتزايد سقوط نديف الثلج وتناقصت أكوام فحم التدفئة وصار النوم بدون عشاء قاعدة متبعة ..

وفى أحد ايام الاسبوع الثالث جلس « اتيين » فى صالة البيت مع

امرأة « ماهوى » التى ترضع ابنتها .. كان سـعيداً بدور الزعيم الشعبى وكان يحلم بالنيابة والمنبر وخطبة واحدة يلقيها فتصرع كل الاعداء ، أول خطبة يلقيها عامل فى برلمان !.. وفجأة ظهـرت « كاترين » لاول مرة منذ هربت مع « شافال » وقالت انها جاءت من أجل الاطفال بسكر وبن ، واخرجت من جيوبها رطل بن ورطـل سـكر ووضعتهما فوق المائدة .. كان العمل مستمراً فى منجـم « جان بارت » فلم ينقطع أجرها ، وكانت هـذه هى الطـريقة التى فكرت فيها لمساعدة أهلها .. لكن أمها استقبلتها بخشونة :

ــ اذهبى فى الحال واعتبرى نفسك سعيدة لانى مشغولة ، والا كنت ناولتك ركلة بقدمى فى مكان ما !

واذا بهذا التهديد يتحقق فجأة ، اذ تلقت مؤخرة الفتاة ركلة قـدم أذهلتها وأوجعتها ، لكن الركلة جاءتها من « شافال » الذى كان قد دخل وراءها فى وثبة وهو هائج بالغضب :

ــ آه ياقذرة ! تحضرين « له » البن بنقودى !..

لاذت الفتاة بركن فسقط غضب رجلها الغيران على الام :

ــ مهنة جميلة ، حراسة البيت بينما تتمتع ابنتك البغى بوصـال حبيبها السافل الذى يسكن عندك !

وقبض على معصم الفتاة وهزها ثم جرها الى الخارج ، وعنـد الباب التفت مرة أخرى نحو أمها التى تسمرت فى الكرسى ناسية ان تدخل ثديها تحت ثوبها ، ونظر فى الثدى الكبير المتدلى كضرع بقـرة قوية ، وصاح :

ــ عندما لا تكون البنت موجودة فان الام هى التى تقوم بالمهمة .. هيا ، أريه لحمك !..

وصار الشابان مرة أخرى وجها لوجه، فتوسلت الفتاةالى صاحبها الشرس وأخذت بنفسها يده لتسحبه ، هاربة دون ان تتلفت ..

لم يكن الوقت مناسبا لاثارة معركة بين العمـال ، فكظم « اتيين » غضبه وغادر البيت بعد قليل فى أسى أسـود كحزن الليل المثـلج الذى مشى فيه مطرقا وهو يشعر ملء نفسه بالمسئولية الكبيرة التى يحملها ..

ماذا تكون نهاية هذا الصراع المرير بين الجيـاع المفلسـين وقـوة

الشركة ؟..

وماذا يكون المصير اذا لم يأتهم عون واذا الجوع هزم الشجعان؟..

ثم استرد سكينة نفسه واصراره امام منظر منجم « فورو » الذى مر به ، وعاوده ايمانه بالنصر القريب ..

ودخل الخمارة ، وقال لصاحبها :

ـ لابد مهما يكن من شيء ان يستمر الاضراب ، ولذلك فانى سأكتب الى « بلوشار » وأدعوه الى الحضور لدراسة الموقف ..



— ١٥ —

تحددت الســـاعة الثانية من يوم الخميس موعدا للاجتماع الذى يخطب فيه « بلوشار » فى صالة الارملة « دزير » التى كانت قد ضاق صدرها بالبؤس النازل بالفحامين « أطفالها » كما أثارها ما نتج عن البطالة من خلو صالتها من الزبائن ، منذ حبس السكيرون أنفســـهم فى البيوت خشية الخروج على كلمة النظام ..

وكانت الخمارات كلها قد خلت من روادها ، حتى ماخور «البركان» تعطلت نساؤه وبار سوقهن رغم تخفيض السعر من نصف الفرنك الى ربعه ، كما شمل قلب البلد كله حداد حقيقى ..

وكان القانون ينص على أن تكون الدعوة الى الاجتماعات صادرة من صاحب المكان الذى تعقد فيه الجلسة ، فتطوعت المرأة « دريز » بارسال الدعوات بنفسها الى نحو خمسين عاملا من مندوبى المناجم .. وفى الساعة التاسعة صباحا توجه « اتيين » الى « الصالة » وتفقدها بعد أن استبدلت بمنصة الموسيقيين فيها منضدة وثلاثة كراسى فى الصدر واصطفت فى فراغها المستطيل دكك الجلوس .. ثم ظهر « راسنير » و « سوفارين » الذى كان قد اشتغل « وردية الليل » مع الميكانيكيين الذين لم يشتركوا فى الاضراب ، وقد اقبل الان ببســـاطة مدفوعا بالفضول وحده ، على حين كان دافع « راسنير » هو القلق من أن تتطور مناقشـــة استمرار الاضراب الى انضمام جمـــاعى الى « الانترناسيونال » التى سيخطب رجلها الســـاحر . وهو يرى أن مشكلة العمال الحقيقية ليست مع السياسة والحكومة ، وأن المهم فى رأيه هو أن يظفر عامل المنجم بمعاملة أحسن ، وقد اشتغل « تحت » عشرين سنة وعرف البؤس والتعب فأقسم أن يظفر لهؤلاء التعســـاء الباقين هناك بنصيب أوفى من طيب العيش ..

وكان يتكلم فى ثقة وهو يعلن لصديقه أنه يحس أن العمـــال لن يحصلوا على شىء من هذه الافكار ، بل سيكون مصيرهم أسوأ .. ان

العامل سوف يجبره الجوع على العودة الى عمله وعندذاك ستستبد به الشركة ، وهذا هو مايريد أن يمنعه .. أليس من الغباء أن يعتقد احد ان فى وسعه تغيير العالم بين يوم وليلة ، بضربة واحدة ، واقتسام خيرات الدنيا كما تقتسم تفاحة ؟.. ربما لزم لتحقيق ذلك الاف والاف من السنين .. انه لا يؤمن بالمعجزة .. والعقـــل يقضى بالمطالبة بالاصلاحات الممكنة وانتهاز كل الفرص لتحسين مستوى العمال ..

لكن « اتيين » كان قد هاج وارتعـــد بالغضب ، على حين كان « سوفارين » جالســـا على احد الكراسى وهو يتفرج فى هدوء على المناقشة الحادة ، بعد أن لف سيجارة ، وعلى شفتيه ابتسامة ..

والان صار « اتيين » الثائر هو الذى يشرح فى انفعال شديد وجهة نظره .. هل نعقد أذرعتنا وننتظر اذن ، بينما الناس يأكل بعضهم البعض الى نهاية العالم مثل الذئاب !.. يا لها من طريقة سهلة !.. لا !.. ان التدخل واجب ، والا خلد الظلم فى الدنيا .. ان السياسة لا يمكن فصلها عن المسألة الاجتماعية ..

وكان الثالث يسمعهما وهو لا يرى فيهما ـ المعتدل والثورى ـ أكثر من صورة أخرى من صور اصطراع المذاهب ، عندما يندفع مذهب منها نحو المبالغة الثورية فيدفع المذهب الاخر الى اصطناع الحذر والاناة ، ويندفع الاثنان بالرغم منهما الى مدى أبعد من افكارهمـــا الحقيقية ، فى حتمية لا اختيار فيها لصاحب المذهب ..

وكان « اتيين » يقول فى ثورة :

ـ أنت اذن تغار منى ؟..

وكان « راسنير » يجيبه :

ـ اغار من ماذا ؟.. انى لا أتخذ وقفة الرجل العظيم !.. ولا انشىء فرعا للانترناسيونال فى مونتسو لكى أكون سكرتيره !.. أنت لا تعنيك الانترناسيونال فى شىء ، وكل ما تطمع فيه هو ان تكون على رأسنا .. أن تغدو السيد الذى يراسل « المجلس الاتحادى للشمال » المشهور !

فيقول « اتيين » وهو يرتعد من الغيظ :

ـ مادمت لا تحتمل أحدا الى جانبك فانى منـــذ الان سأتصرف

وحدى ، وسيتم الاجتماع حتى اذا لم يحضر « بلوشار » وبالرغم منك سينضم الزملاء !

فيرد « راسنير » عليه :

ـ سأحضر الاجتماع وأتكلم وأمنعك من آن تدير رءوس أصدقائى واوضح لهم المصالح الحقيقية .. وسنعرف أينا يتبعون ، أنا الذى يعرفونه من ثلاثين سنة او انت يامن قلبت كل شيء عندنا فى أقل من سنة .. ان المسألة الان هى من يسحق الاخر ؟! ..

وخرج وصفق البـاب وراءه فتوجـه « اتيين » المنتفض الى « سوفارين » الهادىء واتكأ على المنضدة من الناحية الاخرى بعد أن جلس ، وسأله :

ـ قل لى ماذا كنت تفعل لو كنت فى مكانى ؟ .. ألست على حق فى تفضيل الحركة والانضمام الى تلك الجمعية ؟

وفى هذه المرة أيضا لم يرد بأكثر من كلمته المفضلة :

ـ سخافات ! ..

وتوقد فى عينيه لهب محموم ..

وتقبضت يداه الرقيقتان على حافة المنضدة حتى كادتا تحطمانها ، وهو يرى الحل الوحيد صورا بشعة لخراب العالم ..

ثم انصرف ..

وبدأ مندوبو العمال يظهرون فى توجس من جواسيس الشركة ، ثم ظهر « راسنير » وجمـاعة من الهازئين فى طليعتها « زخارى » و « موكيـه » وأخـذوا يشربون البيرة وهم يسخرون من زملائهم الجادين .. وأخيرا ظهر « بلوشار » المنتظر فى عربة يجرها حصان لاهث ، ودخل القاعة وهو يحمل تحت ذراعه صندوقا صغيرا من الخشب الاسود ..

وفى الحال تكونت هيئة المكتب وتمت الموافقة على اختيارها برفع الأيدى ، واحتلت الهيئة الثلاثية مكانها فى الصدر برئاسة «بلوشار» وعضوية « ماهوى » و « اتيين » ودق الرئيس المنضـدة بقبضته طالبا الانتباه ، وشـكرهم على حسن استقبالهم ثم أعطى الـكلمة للمواطن « راسنير » الذى كان يلح فى طلبها ..

وواجه الخمار المعارضة التى كان يحسها فلم يهاجم الاستمرار

فى الاضراب أو ينادى بالتفاهم مع الشركة ، لكنه جعل همه أن ينال من اصرار العمال ويريهم الموت جوعا رأى العين ، فتساءل عن الموارد التى يعتمد عليها أنصار المقاومة .. وعندما قوبل بصمت بارد حمله تيار الغضب فتنبأ لهم بالشقاء اذا تركوا رءوسهم تديرها تحريضات خارجية ، فهبت القاعة الا أقلية صغيرة تريد أن تمنعه من قول المزيد ، ولم يعد الهدوء الا بعد أن قرر المجتمعون سحب الكلمة منه .. وهنا انبرى « بلوشار » يرسم الكتدرائية الضخمة لعالم المستقبل والنصر القريب الحاسم ـ الذى كان يتوقع حدوثه قبل مرور ثلاث سنوات ـ وتكلم عن الاضراب فقال انه من ناحية المبدأ لا يقره ، فهو وسيلة شديدة البطء ووطأتها على العامل ثقيلة ، لكنه فى انتظار ما هو أحسن ، وعند الضرورة ، لا يمانع فيه .. وعندما رأى الاقتناع العام ناطقا فى الوجوه أخرج من صندوقه بطاقات العضوية .. لكن عملية توزيعها لم تكد تبدأ حتى فتح الباب فجأة وملأته المرأة « دزير » ببطنها وصدرها الهائلين وهى تقول بصوت راعد :

ـ الصمت ! .. الجندرمة ! ..

وما أن قالتها حتى حدث اضطراب فى القاعة لم يتم معه شىء ، لا التصويت على الانضمام ولا الموافقة على الاستمرار فى الاضراب .. لكن الرئيس طلب فى عجلة خاطفة أن يتم التصويت فى الحال برفع الأيدى ، فارتفعت بعض الأيدى ولم يرتفع بعضها الآخر وصاح المندوبون معلنين أنهم ينضمون باسم الزملاء الغائبين .. وبذلك صار عمال الفحم فى « مونتسو » البالغ عددهم عشرة آلاف ، أعضاء فى الانترناسيونال ثم تسلل الحاضرون من باب المطبخ الى مخزن الوقود ، وكان « راسنير » أول من هرب ..

- ١٦ -

فى بداية يناير القاسية زاد البؤس رغم أن أربعة الاف فرنكوصلت من لندن من المكتب الرئيسى للأنترناسيونال فلم تكف الخبز وحده أياما ثلاثة ، ثم ضاعوا فى برد الشتاء وغاصوا فى رعدة الجوع وأحسوا أنهم انعزلوا عن العالم ..

كان قد مر شهر على بداية الاضراب لم تبق خلاله فى بيوتهم آنية مطبخ أو قطعة أثاث صالحة للبيع ، وحاصرتهم شائعة تقول ان الشركة مستعدة للتفاهم اذا خطا مندوبو العمال خطوة أخرى عند المدير ، لكن « اتيين » والمندوبين ترددوا فى المخاطرة بمثل هذه الخطوة من جانبهم دون أن يعرفوا نوايا الادارة .. ان الاضراب الذى أضر بالعمال قد ضيع أيضا على الشركة نفسها مئات الآلاف من الفرنكات عن كل يوم بطالة ، وكل مكنة تتوقف هى رأسمال ميت ، والمهمات والادوات بدون العمال لا حركة لها ، وكبار الزبائن يتكلمون عن استيراد الفحم من بلجيكا ، والخسائر متزايدة فى ممرات المناجم المهجورة حيث تكررت الانهيارات وغمرت المياه بعض العروق وصارت حالة المناجم فى حاجة الى اصلاح قد يستغرق أشهرا قبل استئناف الانتاج ..

واخيرا انتهى هذا التردد الى قرار بالتوجه الى المدير ، حتى لا يتهموا فيما بعد بأنهم رفضوا فرصة اطلاع الشركة على أخطائها ، بعد أن أقسموا ألا يتنازلوا عن شىء من شروطهم العادلة ... وكانت مقابلة جافة فى هذه المرة ، بداها المدير « هينبو » قائلا انه لم يتلق أوامر جديدة وأن الامور لا يمكن أن تتغير طالما احتفظ العمال باصرارهم على تمردهم الكريه ، ثم لان وأخذ يبحث عن أرض محايدة يتنازل فيها كل من الطرفين عن قدر من صلابته .. فاذا هم قبلوا ان يكون أجرهم عن عملية التدعيم على حدة ، فان الشركة تزيد هذا الاجر بمقدار السنتيمين اللذين يتهم العمال الشركة بأنها

تريد كسبهما منهم ، وأضاف أنه يقدم هذا العرض «على مسئوليته» لأن الشركة لم تقرره ، وأنه يسره مع ذلك أن يقنع « باريس » بهذا التنازل ، فلما رفض المندوبون وكرروا مطالبهم اعترف بأنه مفوض للاتفاق فى الحال ، واستحثهم على القبول باسم نسائهم وأطفالهم الذين يموتون من الجوع ، فكرروا له الرفض ، وافترقوا بخشونة !

وبعد الظهر تحرك من مساكن العمال وفد آخر ، نسائى فى هذه المرة ، كان هدفه انتزاع قرض آخر من التاجر اللئيم « ميجرا » .. انتزاعه للجياع ! ..

وكن نحو عشرين امرأة من بينهن امرأتا « ماهوى » و « ليفاك » وأم « فيلومين » الشيخة « لابروليه » .. وما ان أهل هذا الموكب على بلدة « مونتسو » حتى هز أهلها رءوسهم من القلق وأغلقت الابواب وخبأت احدى السيدات فضيتها ! ..

وعندما عاد النساء هن أيضا بأيد فارغة نظر الرجال اليهن فى صمت ، ثم نكسوا رءوسهم .. !

كانت ليلة بلا دفء ، ولا رجاء ، ولا عشاء فلم يطق « اتيين » جو البيت الحزين الخالى من كسرة خبز ..

ـ انتظرونى ، لعلى أجد شيئا فى مكان ما !

كان قد ذكر البنت « موكيت » التى ضعف مرة امام الحاحها الشديد وضاجعها ، وتوقع أن يجد عندها الليلة خبزا ..

ودخل أطلال منجم « ريكيار » حيث تعيش مع أبيها الشيخ حارس المنجم تلك التى تقبل يديه فى فرح الخادمة العاشقة ..

وبعد خروجه من البيت بقليل كانت امرأة « ماهوى » هى الأخرى قد نهضت قائلة انها ستذهب فترى .. وقصدت بيت الجار « ليفاك » أول ما قصدت ، لكن رائحة البؤس فى ذلك البيت كانت أقوى وأفدح من رائحته فى بيتها .. فذهبت ودقت باب « بييرون » الذى كان مستكنا وراء بابه وهو يدعى المرض ، وهناك سمعت ضحكات قطعها دق الباب ، وسكونا مفاجئا .. ثم مرت لحظة قبل أن يفتح لها .. ورأت الموقد عامرا والرجل فى عافية ـ وان كان يصطنع ضعف المرض ـ وشمت نكهة ارنب مطبوخ .. لابد انهم اخفوا الطبق .. لكن الفتات كان ظاهرا على المائدة حول

زجاجة نبيذ نسوا أن يخفوها هى الأخرى .. وارتدت خارجة الى الشارع الذى كان القمر من وراء السحاب يلقى عليه نورا مريبا ..

وأمام الكنيسة رأت « الاب جوار » فتوجهت اليه بتحية كلهـا وجاء وعشم ، لكنه رد تحيتها دون أن يتوقف ليصغى اليها ..

وعندما عادت الى بيتها وجدت أهلها جامدين فى أماكنهم حيث تركتهم ، الكبار والصغار ، فارتمت هى الأخرى قرب النار الخامدة .. ومر وقت ثقيل قبل أن يظهر « اتيين » حاملا فى خرقة نحو عشر من حبات البطاطس المسلوقة الباردة ، وكذب وهو يأبى أن يأكل منها زاعما أنه تعشى « هناك » ، فانقض الصغار فى سعار ، واضطر الكبار أن ينتزعوا واحدة من بين يدى العجوز النهم « الموت الطيب » كى تأكلهـا « الزير » الواهنة القوى .. وهنـا خرج « ماهوى » من صمته فاقترح للغد عقد اجتماع مسائى فى الغـابة للتشـاور ..

وافق الشـاب على الفكرة وخمدت النار وانطفأت الشمعة . وحان أن يتلمس كل طريقة الى مرقده ، فى الظلام ، فى الجوع ، فى البرد .. وكان الأطفال يبكون .. ثم ساد الصمت ..

ـ ١٧ ـ

فى أصيل ذلك المساء الكئيب كان الغلام الاعرج « جانلان » فى خرابة وراء سور يواجه بقالة عوراء فى زاوية طريق ، ومعه تابعاه اللصيقان « ببير » و « ليدى » ، وكان متربصا فى مكمنه بالمرأة العجوز التى تكاد تكون عمياء ، صاحبة الدكان الرابضة وراء أكياس قليلة من العدس والفاصوليا سوداء من التراب ، وكان هدفه سمكة مقددة معلقة فى باب الدكان !

وكان على « ببير » الخـــانع أن يطيعه فينقض على الســمكة ويخطفها ، فلما خلا الطريق الساكن من المارة دفع الأعرج صاحبه المطيع الى « الشغل » :

ـ هيا يا جسور ! .. شد من الذيل ! .. واحذر ، فالعجوز عندها مكنسة ! ..

كانوا قد صاروا رعب البلد ، هؤلاء الصعاليك ..

غزوها شيئا فشيئا وأكلوا ســمك القنال نيئا وانتشروا كيلو مترات والتهموا توت الربيع وبندق الصيف ، ولم يلبث الســهل الرحيب كله أن صار ملكهم ..

وكان الأعرج كابتن هذه الحملات الذى يقذف بذئابه الشابة على كل الفرائس ، مكتسحا حقول البصل والفاكهة ومهاجما معروضات الحوانيت .. وهو الآن بعاهته أسرع فى العدو منه قبل الحادث ، وأكثر سلطة .. وقد بلغ من طغيان عصابته أن قيل فى الاقليم أن العمال المضربين أنفسهم هم الذين كونوا عصابة كبيرة منظمة للسلب والنهب !

وكان من سلطته على الصبية « ليدى » أنه أجبرها ذات مرة على أن تسرق من أمها دستتين من أعــواد حلوى الشعير كانت امرأة « بييرون » تحتفظ بهما فى وعاء زجاجى معروض فى نافذتها ، وعندما

ضربت بقسوة لم تعترف باسمه ولم تخنه ، فالى هذا الحد كانت ترتعد أمام سلطانه .. !

ومن كل غنيمة كان « جانلان الأعـرج » يحتفظ لنفسـه بحق الأسد ، حتى « ببير » الذى يكبره بسنة كان يسعده أن يسلم غنيمته الى الكابتن ليحتفظ بها كلها لنفسـه ، على أن ينجو من الصفع ! .. وهذا هو ما حدث فى ذلك المساء ، اذ ما كاد يخطف السمكة المقددة حتى انتزعها منه الكابتن :

ـ هات ! ..

ـ أريد منها .. أنا الذى أخذتها ! ..

ـ هه ؟ ماذا ؟ .. ستأخذ منها اذا أعطيتك أنا ، وليس هذا المساء على كل حال .. غدا ، ان بقى منها شىء !

وأمره أن يقف أمامه فى صف واحد مع البنت كما لو كانا جنديين تحت السلاح ، ومر من ورائهما قائلا لهما :

ـ الآن تظلان خمس دقائق دون أن تتلفتا ، وبعد ذلك ستذهبان الى البيت مباشرة ، واذا لمس « ببير » « ليدى » فى الطريق فانى سأعرف ذلك ، وسأصفع !

واختفى فى أعماق الظـلام بخفة لا يسمع معهـا وقع قدميه الحافيتين ، فظـل الولد والبنت جامدين خمس دقـائق دون أن يتلفتا ، خشية صفعة من حيث لا يدريان .. ثم مشيا جنبا الى جنب ، وهى تريده وهو يريدها ، وكان قد ولد بينهما على مهل تعاطف مبعثه الرعب المشترك ، لكنهما كانا عاجزين عن الخروج على الطاعة ، وكان كل منهما على يقين بأنهما اذا تلامسا أو جمعتهما قبلة سيتلقيان فى الحال من الكابتن صفعة ! ..

وفى الساعة نفسها كان « أتيين » فى طريقه الى « موكيت » التى كانت أمس قد توسلت اليه أن يعود ، وكان مستخذيا ومصرا على عدم الاعتراف لنفسه بشغفه الغريب بتلك البنت المبذولة ، التى تعبده .. سيقول لها الليلة ان الاستمتاع جريمة عندما يموت الناس من الجوع ، ويقطع العلاقة فى مهدها .. ولم يجدها ، فجلس فى الظلمة ينتظرها .. وفجأة أضاء عند بئر المنجم عود كبريت ، عند تلك الفوهة المهجورة التى تقول الشركة منذ عشر سنوات أنهـا

ستسدها ، والتى تراكم حولها الخشب القديم ونبتت شجيرات وتعانقت أعشاب ، وذهــل عدما تبـين « جانلان » الذى كان يوقد شمعة ويغوص بها فى قلب الأرض !

ودفعه فضوله الى الجحر الذى اختفى فيه الغلام الاعرج فرأى قبسا من نور الشمعة يكشف طريقه ، فتردد قليلا ثم اندفع هو الاخر قاذفا بنفسه فى الجحر وهو يتعلق بجذور النباتات ·· وانتهت سقطته عنـد درجة سلم ، فأخذ ينزل فى هدوء مستهديا بالنـور الضئيل الذى يرقص فيه أمامه ظل الغلام عملاقا ومقلقا وهو يتوثب ببراعة قرد فى السلالم المتتابعة التى يبلغ طول الواحد منها سبعة أمتار ، والتى كان بعضها لا يزال متينا والبعض الآخـر يتأرجح ويطقطق وقد اكتست الدرجات بعفونة خضراء ينزلق فوقها القدم ·· وكاد يهوى مرتين لانزلاق قدمه على الخشب اللزج ، وراح يصطدم فى كل خطوة صدمة توجعه ··

وبعد هبوط اليم فى ثلاثين سلما وصلت به الى عمق مائتين وعشرة أمتار لمح الشمعة تختفى فى أحد الممرات ، فتبعها فى رحلة أشـد خطرا ، وخفافيش مذعورة تطير وتلتصق بالسقف فوق رأسه .. وحيث كان الغلام يمر بليونة الثعبان كان هو يؤذى أعضاءه فى ذلك الممر المهجور الذى كان يضيق فى بعض أجزائه كأنه مصران ..وصار الآن يتقدم فى حذر ، على ركبتيه أو على بطنه ، متحسسا الظلمة أمامه ، وفجأة اكتسحت جسمه من العنق الى القدمين عصبة من فيران تركض هاربة

وفى نهاية كيلو متر اتسع النفق فجأة الى ما يشبه مغـــارة طبيعية ، فتوقف الشاب وهو من بعيـد يرى الغـلام وهو يضع شمعته بين صخرتين ويجلس مستريحا فى اطمئنان العـــائد الى بيته ..

وفى ركن من الكهف كانت كومة من التبن فى شكل مرقد لين ، وعلى قطع من الخشب القديم مرصوصة بشكل مائدة كان هنـاك خبز ونبيذ وكل الغنائم المكدسة ، حتى العقيم منها ، كالصابون والبوية اللذين سرقهما لمجرد لذة السرقة ، كل محصول الأسابيع الاخيرة الذى يتنعم به الولد فى لذة قاطع الطريق الانانى ··

ـ قل لى ، أتهزأ بمن يموتون « فوق » من الجوع ؟

أرتجف الفلام من الرعب عندما سمع معه فى كهفه صوتا بشريا ، لكنه ما أن عرف المتكلم حتى استرد فى الحال طمأنينته :

ـ هل لك أن تتعشى معى ؟ هه ؟ .. قطعة من السمك المقدد ؟ ..

وبدأ يعمل فى السمكة الجافة بمدية جميلة ذات مقبض من العظم، نقشت عليه كلمة « حب » ...

ـ لك مدية جميلة ! ..

ـ هدية من « ليدى » ! ..

لم يقل انها سرقتها نزولا على أمره ، وانما أضاف بزهو :

ـ أليس مريحا أن يكون المرء فى بيته ؟ هنا أدفأ من « فوق » وأفضل ! ..

جلس الشاب وقد هاج فضوله فأسكت غضبه ، وتذوق الرغد فى أعماق هذا الجحر الدافىء الذى تسرح فيه قطعان من الفراشات والذباب والعناكب جردها بعدها الابدى عن الشمس من كل لون ، فهى بيضاء شاحبة البياض ..

ـ ألا تخاف اذن ؟ ..

فنظر الفلام مندهشا :

ـ أخاف من ماذا مادمت وحيدا !

وأشعل نارا صغيرة وشوح السّمكة المقددة فوقها ثم قطع رغيفا نصفين ، وأكل مع ضيفه ..

ـ والآخرون ، ألا تفكر فيهم ؟! ..

ـ لماذا هم بلهاء ، الآخرون ؟! .. عندما سرقت رغيفا من « ميجرا » كان ذلك عوضا عن رغيف تدينه به !!

تأمل وجه الفلام الحيوانى وعينيه الخضراوين وأذنيه الكبيرتين ، والذكاء الشرس والحيلة الوحشية ، وكل اعتلال الجنين المجهض قبل أوانه ، والذى استردته الحيوانية القديمة .. ان المنجم الذى صنعه قد أجهز عليه يوم حطم ساقيه !

ـ وهل تأتى بصاحبتك « ليدى » فى بعض الاحيان الى هنا ؟

فكان رد « جانلان » ضحكة احتقار :

ـ آه ! .. لا ! .. فالنساء ثرثارات !

ثم ختم كلامه بجد فيلسوف صغير :

ـ الأفضل أن يظل المرء وحيدا ، فهكذا يكون دائما فى راحة ! ..

وفكر « اتيين » بعد أن أكل وشرب فى أن يتنكر لضيافة الفلام ويعيده الى أهله من أذنه ، لكنه تأمل تلك العزلة العميقة وتصورها ملاذا له أو للرفاق اذا ساءت الأحوال ، فتناول بقية شمعة وانصرف تاركا الفلام ليرتب بيته فى هدوء ..



— ١٨ —

كانت كل الطرق منذ الأصيل عامرة بظلال تنسل فى جماعات صغيرة نحو أعماق الغابة ، وقد لمح « هينبو » بعض هذه الظلال وهى تتوارى فى عتمة الغابة فحسبها تسعى الى متعتها المألوفة التى لا تتكلف شيئا فحسدها عليها ، وتمنى لو يموت مثلهم من الجوع ويكون فى وسعه أن يبدأ الحياة مع امرأة تهبه نفسها بكل هذه الرغبة فوق أرض عارية ، ونكس رأسه وهو يعود الى بيته فوق حصانه البطىء الخطو وقد ملأت نفسه باليأس هذه الأصوات المتصلة الضائعة فى قلب الخلاء المظلم ، التى لم يكن يسمع منها الا صدى قبلات .. أما هناك فى قلب الغابة فقد كان الأمر جدا ، وكان ثلاثة آلاف من عمال المناجم قد تجمعوا ومعهم نساؤهم وأطفالهم فى بقعة اجتثت أشجارها ولا يزال بعضها ملقى فوق العشب كالعمالقة ، وأخذت تصدر عن هذه الجمهرة همهمة كأنها ريح مزمجرة فى هذه الغابة الجامدة المثلجة ..

ووقف « اتيين » فى أعلى المنحدر الخفيف ، أما أصحاب الهزل ومن جاءوا للضحك وحده فقد لاذوا بجانب بعيد ، على حين تجمعت النساء فى هدوء وجد كما يظهرن فى الكنيسة ، واعتلى الولد الأعرج كومة الخشب المرصوص ناحية الشمال بعد أن أجبر تابعيه « ببير » و « ليدى » على محاكاته ، حتى يكونوا أعلى من الجميع ..

ومرة أخرى كان الخلاف على أشده بين الرجلين الواقفين فى ذروة المنحدر ، فان « راسنير » كان يصر على أن تعاد عملية انتخاب المكتب بطريقة نظامية ، على حين كان من رأى « اتيين » أن من الغباء اجراء مثل هذه الخطوة فى غابة ، وأن المطلوب الآن هو الاتفاق على تصرف ثورى ضد أولئك الذين يطاردونهم كما تطارد الذئاب ..

وعندما طال الخلاف صعد فجأة فوق جذع شجرة وصاح

مستوليا على الجمهور ، فانطفأ اللغط المبهم فى تنهدة طويلة بينما كان « ماهوى » يطفىء احتجاجات « راسنير » ، واستمر « اتيين » فى زعيقه :

ـ ها نحن أحرار كما لو كنا فى بيوتنا ، فلن تأتى الجندرمة لتخرسنا كما لو كنا لصوصا ، حيث لا يخطر لأحد أن يسكت الطيور والحيوانات نفسها ! ..

فأجابه رعد من الصيحات :

ـ أجل ! .. أجل ! .. الغابة لنا ومن حقنا أن نتكلم فيها .. تكلم !

كان القمر لا يزال خفيضا عند الأفق فهو لا ينير غير الاغصان العالية ، بينما ظل الجمع الكبير غارقا فى الظلمة وهو يصغى الى السكرتير وهو يستعرض الاضراب منذ بدايته وموقف الشركة التى تهدد الآن باستخدام عمال من بلجيكا ، كما تقنع بعض الضعفاء بالعودة الى العمل من وراء ظهر اخوانهم .. وقد صور لهم بأمانة خلو أيديهم من كل عون ، وانتصار الجوع ، وموت الرجاء ، ووصول الصراع الى حمى البسالة الأخيرة ، ثم ختم خطابه دون أن يرفع صوته :

ـ هذه هى الظروف التى على ضوئها يجب عليكم أن تتخذوا قراركم هذا المساء .. هل تريدون الاستمرار فى الاضراب ؟ .. وفى هذه الحالة ، ماذا تنوون أن تفعلوا للانتصار على الشركة ؟

سكت الجمع فى الليل الذى يخفيه ، فعاد الى الكلام ، بصوت متغير .. لم يعد سكرتير الجمعية هو الذى يتكلم ، بل الزعيم والرسول حامل الحقيقة .. أهناك جبناء يحنثون بالكلمة ؟ .. كيف ؟! .. أيكون عقيما كل العذاب الذى عانوه شهرا ؟.. أيعودون الى المناجم منكسى الرءوس ليعود البؤس الخالد ؟ .. أليس أفضل من هذا أن يموتوا فى الحال فى محاولة مستميتة لتحطيم الاستبداد ؟ الى متى يتحملون وحدهم النكبات والازمات كلما خفضت ضرورات المنافسة سعر التكلفة ؟ .. لقد آن الاوان للبؤساء الذين بلغوا آخر مراحل الصبر أن ينالوا العدالة ويعانقوها ..

انفجر التصفيق وتعالت الهتافات ، وتوقد الزعيم ، ولان له

الكلام :
ــ البحر للصياد والأرض للفلاح ، فعلى المنجم أيضا يكون للفحامين ! .. اتسمعون ! .. المنجم ملككم ، كلكم ، أنتم الذين دفعتم ثمنه منذ قرن بالدم والبؤس .. ملككم ..

وأناره القمر الصاعد فى الافق فرأوه أبيض فى النور ورأوا يديه المشيرتين الى البلد كله توزعان الثروة ، فصفقوا وهللوا .. لم يعودوا يحسون البرد منذ أدفأتهم هذه الكلمات ، وانما دقت قلوب الرجال والنساء وانتعشت ..

لكن « راسنير » أخذ يصرخ طالبا الكلمة ، فقفز الخطيب من فوق جذع الشجرة الملقى وهو يقول له :

ــ تكلم وسنرى ان كانوا يصغون اليك ! ..

ارتقى صاحب الخمارة ذلك المنبر وأشار يطلب السكوت فأبوا أن يسمعوه وضاع كلامه فى الضجة ، ثم انهم آخر الأمر رجموه ، وصاحت امرأة حادة الصوت :

ــ ليسقط الخائن ! ..

فكررت الهتاف آلاف الأصوات بينما كانت الحجارة تصفر فى الجو وهى تقصده ..

وشحب الرجل وانبثقت فى عينيه دموع اليأس ، فلقد كانت هذه اللحظة فى احساسه نهاية عشرين سنة من الأخوة الطموحة تتهاوى تحت نكران الجمهور ، فنزل وهو يقول للشاب المنتصر :

ــ هذا يضحكك ! .. أتمنى أن يحدث هذا لك ، ولسوف يحدث ، أتسمع ! ..

وانصرف وحيدا خلال العراء الأبيض الصامت ..

وعاد « اتيين » الى المنبر فتكلم وأثار وسألهم مرة أخرى :

ــ ما هو قراركم ؟ .. هل تصوتون مع استمرار الاضراب ؟

تعالت الموافقة كالرعد ، فعاد يسألهم :

ــ وما هى اجراءاتكم ؟ .. ان هزيمتنا مؤكدة اذا عاد بعض الجبناء الى العمل غدا ..

ــ الموت للجبناء ! ..

ــ أتقررون اذن أن تعيدوا الجبناء الى الواجب والى القسم الذى

أقسمناه جميعا ؟ .. هذا هو ما نستطيع أن نفعله .. نذهب الى المناجم لنمنع الضعفاء من النزول ونرى الشركة أننا كلنا على وفاق وأننا نؤثر الموت على الاستسلام ..

ــ هو هذا ! .. الى المناجم ! .. الى المناجم ! ..

فقال الزعيم منذرا :

ــ ليحذر عمال « جان بارت » الذين لم يتركوا العمل ، فنحن نعرفهم ! ..

فارتفع من الجمع صوت « شافال » يسأل :

ــ أتعنيني بكلامك هذا ؟ ..

ــ أنت أو غيرك ، لكن ما دمت تتكلم فان عليك أن تفهم أن أولئك الذين يأكلون ليس لهم ما يفعلونه مع الجياع ، أنت يا من تشتغل ولا تضرب ! ..

ــ أهو ممنوع أن يشتغل الانسان ، أم ماذا ؟!

ــ أجل ! عندما يتحمل الآخرون البؤس من أجل خير الجميع ! .. لو أن الاضراب كان شاملا لكنا من زمن قد سدنا الموقف .. انه لا يوجد فى منجم « جان بارت » الا خونة ! .. كلكم خونة !

وتكونت حول « شافال » حلقة مهددة وارتفعت قبضات الأيدى وزعقات دفعته الى الصياح بفكرة جاءته للانتصار على منافسه الذى يغار منه :

ــ اسمعونى ! تعالوا غدا الى « جان بارت » وسترون هل اشتغل أو يشتغل أحد ! .. نحن منكم ، وقد أرسلونى لأقول لكم هذا ! ..

فصفقوا له ، وتم الاتفاق على اللقاء عند ذلك المنجم صباح الغد ، وملأ السماء أعصار هذه الآلاف الثلاثة من الأصوات ..

ثم انطفأ الأعصار فى ضوء القمر ..

— ١٩ —

غاب القمر ونام كل شيء فى بيت « آل دينولان » الواقع فى نهاية الحديقة الواسعة المهملة التى تفصل البيت عن منجم « جان بارت » ، أما الواجهة الاخرى للبيت فكانت تطل على الطريق المقفر المفضى الى القرية المجاورة الكبيرة المختبئة وراء الغابة على مسـافة ثلاثة كيلو مترات .. لكن رب البيت لم يلبث أن صحا من نومه على نذير من أحد رجاله بعصيان نصف عمال المنجم ، الذين يمنعون النصف الثانى من النزول للعمل » ..

ـ أجبرهم على النزول !! ..

وارتدى « دينولان » ملابسه فى عجلة وخرج من حجرته فالتقى بابنتيه مذعورتين تتساءلان عن الخبر ، وكانت الكبرى سمراء فارعة والصغرى دقيقة الجسم ذهبية الشعر وظريفة الدلال ، فأرغمتـاه على تناول كأس من الروم وقطعتين من البسكوت قبل خروجه لمواجهة المخاطر التى تتهدد ماله ..

كان « شافال » قد وصل الى المنجم منذ الساعة الثالثة من الصباح وأخذ يقنع زملاءه بضرورة الاقتداء بعمال الشركة والمطالبـة بزيادة خمسة سنتيمات عن كل عربة فحم يخرجونها .. والذين أرادوا أن يشتغلوا حملوا مصابيحهم ووقفوا بأقدامهم الحافية وأدواتهم تحت أذرعهم ، أما الاخرون فلم ينزعوا أحذيتهم الخشبية وسدوا الطريق الى البئر .. وكان الرؤساء يضطربون وسط هؤلاء الاربعمائة رجل وهم يتوسلون الى المضربين أن يتعقلوا ولا يمنعوا الراغبين فى العمل من النزول ..

وغضب « شافال » عندما لمح « كاترين » فى ملابس العمل ، اذ كان قبل أن يغادر البيت قد أمرها بعنف أن تظل راقدة ، لكنها تبعته ، فهى تريد أن تعمل لانه لم يكن يعطيها نقودا بل كان عليها هى فى الكثير من

الاحيان أن تدفع لها وله .. وماذا يكون مصـــيرها الان اذا لم تعد تكسب شيئا ؟ . كان هناك خوف يسكنها .. الخوف من بيت من بيوت البغاء فى « مارشيين » كانت تنتهى اليه العاملات عندما تعز عليهن اللقمة والمأوى ! ..

وهددها بقدمه فتراجعت فى خوف ، لكنها لم تغادر المكان وأصرت على أن ترى كيف تتطور الامور ..

وظهر صاحب المنجم :

ــ ماذا يجرى يا أطفالى ؟ . ما الذى يغضبكم ؟ .. فسروا لى هذا ، وسنتفاهم ..

ــ هاك المسألة يامسيو « دينولان » ! .. نحن لا نستطيع الاستمرار فى العمل ، اذ تلزمنا خمسة سنتيمات زيادة فى أجر كل عربة ..

ــ خمسة سنتيمات ؟ ! .. بأية مناسبة هذا الطلب ؟ . أنا لا أشكو من عملكم فى التدعيم ولا أريد أن أفرض عليكم تعريفة جديدة مثل شركة مونتسو ! ..

ــ لكن زملاءنا فى مونتسو هم مع ذلك على حق ، وهم يرفضـــون التعريفة ويصرون على زيادة السنتيمات الخمسة ، ونحن نريد خمسة سنتيمات زيادة ، أليس كذلك يا هؤلاء ؟

وأيدت الاصوات « شافال » واقترب الجميع شيئا فشيئـــا حتى كونوا حلقة ضيقة ..

وقاوم صاحب المنجم رغبته فى الوثوب الى عنق أحدهم ، وسيطر على قبضته ، قبضة الرجل عاشق الحكومات القوية ، وآثر أن يناقش ويتكلم بعقل ..

ــ لا أستطيع أن أدفعها لكم .. اذا دفعتها لكم فمعنى ذلك ببساطة هو افلاسى .. افهموا اذن أنى يجب أن أعيش انا اولا حتى تعيشوا أنتم .. وانا فى اخر طاقة احتمـــالى ، وأقل زيادة فى سعـر التكلفة ستقضى على .. انى اذن أفضل ان « أقفل الدكان » فى الحال على ان أعجز فى الشهر القادم عن دفع أجوركم ..

وبدا على بعض العمال التردد وعاد الكثيرون الى ناحية البئر ، فقال أحد الرؤساء :

ــ على الاقل ليكن كل واحـد حرا .. من هـم الذين يريدون أن

يشتغلوا ؟

وكانت « كاترين » فى طليعة المتقدمين ، لكن « شافال » دفعها فى غضب وهو يصيح :

ــ كلنا متفقون ولايخون رفاقه الا الخونة ! . .

واستحال التفاهم وارتفع الصراخ ودفع الثائرون زملاءهم بعيدا عن البئر ، فانسحب صاحب المنجم الى أحد المكاتب ، ثم أرسل أحد المراقبين فى طلب « شافال » وصرف الاخرين ليخلو بذلك العامل الذى صبحه بالاضراب على غير انتظار . .

وكانت فكرة « دينولان » أن يرى مافى بطن هذا الولد !

ابتسم له وتملقه وداعب كبرياءه ، واصطنع الدهشة من أن يفسد عامل ممتاز مثله مستقبله اللامع ! . . انه هو يلحظه من زمن طويل ويعد له ترقية سريعة ! . . ثم عرض عليه بصراحة أن يعينه رئيسا ، فيما بعد . . وكان العامل يسمعه فى سكون ، وكانت قبضتاه فى البداية مضمومتين ، ثم تراختا شيئا فشيئا . . فتح الرجل له باب طموح جديد ، أن ينتقل الى صف الرؤساء . .

لقد حانت ساعته للاذعان ، لكن حركة رأسه كانت تعنى الرفض ، رفض رجل لاتلين له قناة . . وأخيرا وعد ان يهدىء رفاقه ويقنعهم بالنزول عن مطالبهم ، دون ان يشير فى كلامه مع صاحب المنجم الى اتفاقه فى الغابة مع عمال الشركة !. وكانت نتيجة هذا التراجع السريع من زعيم الحركة أن أنصرف مائة وعشرون عاملا وهم ثائرون عليه ومصرون على قرارهم الذى دفعهم الى اتخاذه فى البداية ، ونزلت الاغلبية الى العمل . .

وصرخ « شافال » فى « كاترين » التى كانت تنتظر دورها فى النزول الى قلب المنجم :

ــ ماذا تفعلين عندك ؟ هل لك أن تخرجى من تسكعك وتنزلى ! ! .

— ٢٠ —

فى الساعة العاشرة روع الذين يعملون فى بطن المنجم بدوى مريب ، ثم رأوا أحد الاسطوات يجرى وهو يصرخ :

ـ انهم يقطعون الاسلاك ! .. عمال مونتسو يقطعون الاسلاك ! . ليخرج الجميع ! .

فتراقصت المصابيح وانطلقت الظلال المذعورة تتخبط فى الظلام باحثة عن خلاصها ، لم يتخلف عن هذه الحركة الجماعية غير «شافال» الذى أوقف صاحبته كأنه يريد أن يظل فى قلب المنجم ولا يخرج لمواجهة عمال الشركة الذين واعدوه فأخلف وعده وخانهم .. لكن صوت الاسطى ارتفع من جديد :

ـ ليخرج الجميع ! . الى السلالم ! . الى السلالم ..

وحملتهما الموجة المجنونة المتخبطة الصاعدة فى أكثر من مائة سلم متعاقبة ، فلما بلغت « كاترين » السلم الثانى والثلاثين أحست أن ساقيها وذراعيها تتصلب ودار برأسها دوار ولم تعد تطيق تشنج عضلاتها ، وفكرت فى أنها لن تصل سالمة الى نور النهار ، بل تسقط الى الموت ورأسها الى أسفل .. واستمر ذلك الصعود الأليم اللاهث نصف ساعة بلغوا فيه السلم التاسع والخمسين ، ففكرت المسكينة :

ـ لا يزال أمامنا ثلاثة وأربعون ! .

ولم تعد تشعر بحركاتها ، وزاد فى محنتها ان الذين كانوا تحتها أخذوا يدفعون من أمامهم ، والعمود الطالع كله هاجه الغضب المتزايد النابع من الرعب والاعياء والشوق الى وجه الشمس ..

وفجأة سقطت فصرخت باسم « شافال » الذى كان يتقدمها فى نداء يائس ، لكنه لم يسمعها ، اذ كان يقاتل ليشق طريقه بالقوة فوق زميل من زملائه ، فداسها الاخرون حيث سقطت .. وأرادت أن تقاوم وتنهض ، وظلت من جديد ترقى السلالم حتى وجدت نفسها آخر

الامر وسط جمهرة زاعقة تزأر فى وجهها ، فى بهرة الشمس .. كان هؤلاء هم المضربون الذين جاءوا فى نحو خمسمائة رجل وامرأة على رأسهم « اتيين » وقالوا لصاحب المنجم بلسان رئيسهم :

ـ لم نأت لنلحق بك أذى ، لكن العمل يجب أن يتوقف فى كل مكان

ـ ان « رجالى » لن يصعدوا من « تحت » الا اذا بدأتم بقتلى !

ـ أتوسل اليك يا سيدى أن تصدر الامر لعمالك بالصعود ، فانى لا أضمن من معى ، وتستطيع أنت أن تتجنب الشر ...

ـ اليكم عنى ! هل أعرفكم ؟ لستم من رجالى ، ولا أجادل لصوصا يجوبون البلد لينهبوا البيوت ! .

ففطت على صوته زمجرة الرجال وشتائم النساء واقتحموا الباب، فشده رجاله فى اللحظة الاخيرة الى الوراء وهو يقاومهم ، واندفع المد المكتسح من الباب الى رحبة المنجم الداخلية ، ووجد « اتيين » نفسه عاجزا عن السيطرة على جماعته ، فراح يصرخ محذرا من الاقدام على أى تخريب عقيم ..

لكن صوت المرأة « لابروليه » الحاقد ارتفع رغم التحذير :

ـ الى المراجل لنطفىء نيرانها !

وصوت « ليفاك » وهو يصرخ فى رفاقه :

ـ لنقطع الاسلاك! . لنقطع الاسلاك ! ..

ولم يبق من يحتج غير « ماهوى » و « اتيين » الذى كان يصرخ :

ـ لا ! كيف تقطع الاسلاك وهناك رجال ونساء « تحت » يا رفاق !. لا ! لا ! ..

فيجيبه زئير وأصوات من كل صوب :

ـ ليكن ! . كان عليهم ألا ينزلوا ! . وحسن أن نصنع هذا بالخونة !. أجل ، ليظلوا هناك ! .، ثم ان عندهم السلالم !

وبدأ تنفيذ هذا الرأى ، لكن المرأة « لابروليه » التى كان رجلها قد لقى حتفه ذات يوم بعيد فى الاعماق السوداء كانت قد اختفت وهى لا تزال تزعق فى النساء :

ـ يجب أن نقلب النيران ! . الى المراجل ! .

وتبعها نساء رحن يفرغن الافران من وقودها بالجاروف ويقذفن بفحمها المتقد على الارض ..

وفتــح « جانلان » حنفيات التفــريغ فانبثق البخـــار فى عنف الرصاص ، وأفرغت الصهاريج الخمســـة فى شهقــات كالعواصف ، واختفى المشهد كله فى ضبابة من البخار شملت النار والنساء اللاتى صرن كالاشباح ، ولم يعد ظاهرا غير الاعرج السعيد بهذا الاعصار الذى أطلقه . .

وكان العمال الثائرون وهم يجوسون خلال المنجم يتكلمون عن تحطيم الآلات وتخريب المنجم ، فقاومهـــم « اتيين » قائلا انه يكفيهم قطع الاسلاك واطفاء النار وتفريغ الصهاريج ، فان ذلك وحده كاف لجعل استئناف العمل مستحيلا . .

وعندما بدأ العمال الذين صعدوا فى السلالم بعد قطع أســـلاك الاقفاص يظهرون قابلهم عمال مونتسو هاتفين بسقوط الخونة ، فكانوا يطرفون بعيونهم قليلا فى نور النهار ــ بعد تلك الساعة الطويلةالفظيعة فى ظلمة السلالم ــ ثم ينسلون جاهدين أن يبلغوا الطريق ويهربوا . .

ــ ليسقط الخونة ! .

ــ ليسقط الاخوة المزيفون ! .

واصطف المئات من عمال الشركة صفين كى يجبروا هؤلاء الخارجين على حق الزمالة على المرور فى هذا المشى الثائر ، وكلمـا بزغ عامل جديد لقيته صيحات الاستنكار والدعابات الغليظة . . انظروا هــذا الذى طول ساقيه ثلاث بوصات تأتى بعدها على الفور مؤخرته ؟ . . وهذا الذى أكلت أنفه نساء « البركان » ! وهذا الاخر ، الكبير الذى لا أرداف له ! .. وتحولت الدعابات الى قسوة وكادت تنهال اللكمات .. لكن « اتيين » اندفع فى غيظ نحو « شافال » عندما رآه وصرخ فى وجهه :

ــ أهذا هو موعدك الذى جئت بنا اليه ؟ ؟

ــ خذوه ! . الى البئر ! . الى البئر ؟ .

وشحب « شافال » عندما هجم عليه الرجال وتلعثم من الخوف محاولا شرح موقفه ، لكن « اتيين » قطع كلامه وقد أخرجه الغضب عن طبعه وجرفته غضبة الجماعة :

ــ لقد أردت أن تكون من أهل البئر ، وسيكون لك ذلك ؟ . . هيا !. الى الامام يانغل ! . .

وظهرت « كاترين » مجهدة دامية الراحتين فما أن رأتها أمهـا حتى اندفعت نحوها رافعة يدها :

ـ يا قذرة ! . أمن أجـل عشيقـك تخونين أمك التى تموت من الجوع ؟ . .

لكن « ماهوى » أمسك بذراع امرأته ومنع الصفعة ، لكنه أيضا وبخ ابنته العاقة . .

ـ الى الابار الاخرى ! . الى الابار الاخرى ! . .

وكان ذلك صوت « أتيين » نفسه ؟

والتفت الى « شافال » وهو فى قبضة الرجال :

ـ وستأتى معنا أيها الخنزير القذر ! . .

وأجبروه على السير بينهم ، وصاحبته تجرى وراءهم خائفة على حياته . .

واندفعوا كالاعصار !! . .





ـ ياقذرة ! ٠٠ أمن
اجل عشيقك تخونين
امك التى تمـوت
من الجـوع ! ٠٠

— ٢١ —

كان عددهم قد بلغ الالف ، فساروا على الطريق بزعامة « اتيين » وهم يفيضون منه فى حقول البنجر ، وفى المقدمة الولد « جانلان » وقد رفع نفيرا عثر عليـــه فى المنجم وأخـــذ ينفث منه موسيقى بربرية ، والنساء فى الصفوف الاولى مسلحات بالعصى ، ومن ورائهن الرجال بقضبان الحديد ، تعلوها بلطة وحيدة يرفعها « ليفاك » فوق الرءوس فيبرق حدها فى الشمس كالمرآة ..

وعندما بلغوا منجم « مادلين » كان عددهم قد بلغ ألفا وخمسمائة، فقذفوا العمال الخارجين منه بالحجارة ، وأنقذت هذه المطاردة مهمات المنجم فلم يلمس أحد أســــلاكه أو مراجله ، وانحسر عنه المد لينقض على منجم « كريفكور » المجاور له حيث جلد النساء احـدى العاملات بعد أن شقوا بنطلونها من الخلف عن أردافهـــا امام الرجال الذين كانوا يضحكون ، وتلقى عدد آخر من عمال ذلك المنجم صفعات أدمت أنوفهم ..

وتهيأ الجمع بعد ذلك للهجوم على منجم « سان توماس » الحديث الذى لم يبلغه الاضراب ، ويبلغ عدد عماله نحو سبعمائة رجل ، لكن الاشاعة سرت بأن هناك جندرمة ، فتحول الاتجاه الى منجم «فيترى كانتل » ثم تحول مرة اخرى بصورة تلقائية الى منجم « لافكتوار » أقرب هذه المجموعة من المناجم الى بلدة « مونتسو » نفسها .. لكنهم وجدوا أن عمال ذلك المنجم قد أتموا « الوردية » وانصرفوا ، فلما لم يجدوا هناك وجه خائن واحد يصفعونه هاجموا الاشياء ، فخلع الرجال القضبان وحطمت النساء المصابيح ، ولم يجدوا فى « الكانتين » الذى غزوه خبزا ، وكان كل ما وجدوه قطعتين من اللحم النيىء وكيس بطاطس ونحو خمسين زجاجة خمر « الجنييفر » ما لبثت ان اختفت فى البطون كنقطة ماء شربها الرمل ، واحمرت العيون بسكر سىء ،

سكر الجياع ، وبرزت من بين هذه الشفاة الذابلة أنياب الذئاب ..وفى منجم « جاستون مارى » قلبت الافران وافرغت صهاريج المراجل واكتسحت المبانى ، ثم تناول « اتيين » مطرقة ووضعها فى يد أسيره « شافال » قائلا له أمام طلمبة المنجم :

ــ لك الضربة الاولى ! . هيا .. لقد أقسمت فى الغابة مع الاخرين !

وظلوا يضربون الطلمبة بكل ما فى أيديهم حتى انبثق الماء ، ثم ناول أسيره خنجرا وأشهر هو خنجره قائلا له :

ــ لنصف هذه المسألة بيننا نحن الاثنين ! ..

وتذكرت « كاترين » وهى ترقب صراع الرجلين فى اعياء ورعب اعتراف « اتيين » لها بميله عندما يسكر الى افتراس انسان ، فاندفعت نحوه وصفعته بيديها وهى تصرخ فى وجهه مختنقة باستنكارها :

ــ جبان ! . جبان ! . تريد أن تقتله وهو بهذه الدرجة من الاعياء

والتفتت نحو أبيها وأمها ، والتفتت نحو الاخرين :

ــ أنتم جبناء ! . جبناء ! . اقتلونى اذن معه ؟ . اما ان لمستموه مرة أخرى فانى أنا أثب فى وجوهكم ؟ ..

ووقفت أمام رجلها تحميه ، ناسية ضربه ، ناسية بؤسها ، متسامية بفكرة أنها تخصه مادام قد أخذها ، وانه من العار لها أن يهينوه هكذا .. وشحب « اتيين » تحت صفعاتها وسكت ، ثم قال فجأة لصاحبها وسط سكون عظيم :

ــ الحق معها ، هذا يكفى ، فاذهب ! .

وفى الحال انطلق « شافال » يجرى وانطلقت صاحبته تجرى وراءه ، ثم بدأ الجمع الكبير يتحرك مرة أخرى ، فقد قاربت الساعة الخامسة وصرخت البطون والافواه طالبة الخبز ، وكان القصد فى هذه المرة الى بلدة « مونتسو » نفسها :

ــ الى الادارة ! .

ــ الخبز ؟ . الخبز ! . الخبز ! .

وفى تلك الساعة كان السيد « هينبو » قد اتخذ مجلسه أمام النافذة فى حجرة مكتبه ، ولم يكن معه فى البيت غير الخادم « هيبوليت » والطباخة المنهمكة فى اعداد وليمة العشاء التى يقيمها سادتها فى ذلك المساء ، عندما تلقى أنباء غزو العمال المضربين للمناجم والخسائر التى

أحدثوها بها .. وأراد ان يرجع الى مذكرة كان قد رجا « نيجرل » أن يحررها لارسالها الى المحافظ ، فلما لم يجدها بين أوراقه خطر له أنه ربما يعثر عليها فى حجرة ابن أخيه ، فصعد للبحث عنها هناك ..

ودخل فوجد زجاجة عطر زوجته فوق فراش الشاب المهوش !

لابد اذن أنها كانت هنا وأنها هنا كل ليلة ! .. وسقط فوق الكرسى وهو يحدق فى حالة الفراش وظل على هذا الحال فترة قبل أن يجذبه الواقع الخارجى فنزل ليواجه مسئوليته ..

ومن تعليمات الشركة أدرك أنها ترحب بوقوع الاضطرابات لانها ستعجل بانهاء الاضراب بالقمع الحاسم ، ومن تلك اللحظة لم يعد يتردد ، فأرسل برقية الاستنجاد الى المحافظ ، واستكن فى بيته حتى أفزعته فى الساعة الخامسة ضوضاء تدنو من نافذته ، ثم سمع الصيحة الفظيعة :

ــ الخبز ! . الخبز ! . الخبز ! .



أقبل المضربون الجياع لغزو البلدة بينما كان رجال الجندرمة الذين يطاردونهم عبثا منذ الصباح قد توجهوا بهمة الى منجم « فورو » الذى خيل اليهم أنه سيكون الهدف التالى للكتلة الجائعة الزاحفة .. وكانت الالاف السكرى بالجوع قد مرت بمزرعة صغيرة كانت تزورها زوجة المدير ومعها « نيجرل » و « سيسيل » وابنتا « دينولان » فرأت زوجة المدير ومن معها من مخبئهم مرور ذلك الموكب الخارق كأنه إعصار من الحركات والصرخات ، وفى طليعته نحو ألف امرأة مهوشات الشعر فى أسمال تكشف الجلد العارى ، عرى أناث مجهدات ، وفيهن من تحمل صغيرها بين ذراعيها وترفعه وتهزه فوق الرءوس كأنه راية الحداد والانتقام .. وأخريات أكثر شبابا ولهن صدور محاربات بارزة يشهرن عصيا .. بينما عجائز النسوة ، الفظيعات ، يصرخن عاليا فتبدو عروق أعناقهن الهزيلة كما لو كانت تتمزق ...

ثم جاء الرجال ــ ألفان هائجان ــ كتلة كثيفة تتحرك حركة واحدة غابت تفاصيلها فى مجموعها .. وفوق الرءوس ، وسط غابة من القضبان الحديدية ، مرت بلطة مرفوعة وحيدة ، لواء الجماعة ، ولها فى السماء الصافية منظر جانبى حاد كأنه نصل مقصلة ..

والغضب والجوع وشهران من العذاب كانت كلها قد أطالت وجوه هؤلاء البسطاء المسالمين فجعلت لها أشداق وحوش ..

لقد رأت السيدة ومن معها ــ من خلال ألواح باب المزرعة ــ رؤيا الثورة الحمراء التى ستحملهم كلهم حتما فى ليلة دامية من ليالى نهاية القرن هذه ... أجل !! ذات مساء سيثب الشعب هكذا وينثر ذهب الخزائن ويشق بطونها عن كنوزها !.. وسيتعالى صراخ النساء وتكون للرجال أشداق الذئاب ، مفتوحة للعض .. أجل ! ستكون نفس الاسمال ويكون نفس الرعد ولا يبقى حجر قائما .. لقد مروا بهذا

الطريق كأنهم قوة من قوى الطبيعة ، فتلقى هؤلاء القوم المترفــون ريحهم الفظيع فى وجوههم ..

ـ الخبز ! .. الخبز ! .. الخبز ..

ووقف المدير ينظر من وراء شيش نافذة ابن أخيه المغلقة الى هذا الجمع المزمجر الذى يصفه بالكسول وبالاكرش وبالخنزير القـــذر ، وبمنطق الشبعان الاعرج الغبى راح يعجب لهم ما الذى أطلقهم هكذا فجأة من قناعة الغرائز المطمئنة ! .. وعنده هو ، فى هذه اللحظة ، كان الخير الوحيد فى الدنيا بالنسبة له هو عدم الوجود ، فاذا كان لا مفر من الوجود فشجرة او حجر ، بل اقل من هذا ، حبة رمل لا يمكن ان تدمى تحت نعال المارة ..

وأخذت الحجارة تصفع واجهة بيته ، واذا برجل واقف على عتبة خمارة قريبة من الميدان كانت صاحبتها قد بادرت باغلاق نوافذها ، تاركة الباب وحده مفتوحا ، اذا بهذا الرجل ينادى على « اتيين » فى شماتة :

ـ لقد أنذرتك وها هى المتاعب تبدأ .. الان تستطيعون أن تطالبوا بالخبز ، وسيكون الرصاص هو ما تأخذون !

فأجاب « اتيين » فى جفاء على شماتة « راسنير » !

ـ انما يضايقنى الجبناء الذين ينظرون الينا ونحن نخاطر بحياتنا وهم معقودى الاذرع !..

ـ هل فكرتك اذن هى أن تنهبوا هذا البيت ؟ ..

ـ فكرتى هى البقاء الى النهاية مع الاصدقاء ، حتى لو هلكنا كلنا معـــا ..

وعاد يصرخ فى الجمع الهائج قائلا انه لن يفيدهم شىء أن يحطموا زجاج النوافذ ، لكن لم يكن هناك من عاد يطيعه ، حتى « جـــانلان » راح يعلم « ليدى » و « ببير » كيفية استخدام المقلاع .. أما امرأة « ليفاك » وجماعتها فكان يحركهن هياج العمى ، فهن بارزات الاظـافر والاسنان ، نابحات ..

وفى تلك اللحظة أقبل « آل جريجوار » لزيارة بيت المدير فتركهم العمال يدخلون ، كما تسلل « ميجرا » الى بيت المدير محتميا به من هجوم «الغوغاء» على متجره وشخصه ، لكن المدير نصحه ببرود أن

يعود للدفاع عن بضائعه !.. ولم يتحرك التاجر من مكانه متوقعا أن يمزق اذا خرج .. كان عنقه لا بضائعه هو الان فى الميزان !

وطال هذا الحصار فبدأ المدير المتوتر يتكلم عن الخروج وحده لطرد المحاصرين ، وأخيرا أقبلت زوجته بجماعتها فدخلت « لوسى» و «جان» ابنتا « ديمولان » و « نيجرل » مع « المدام » فى هدوء ، لكن « سيسل » استولى عليها رعب جعلها تقذف بنفسها فى قلب الخطر ، فأحاطت وجوه صارخة بثوب من الحرير ومعطف من الفراء وريشة بيضاء فى قبعة ، وتركز السخط على هذا كله وعلى عطر يفوح وساعة رشيقة وجلد ناعم ، جلد منعمة كسول لا تلمس الفحم ! ..

ـ هذا هو ما يسرقونه منا ! ..

ـ سلموها لى عارية تماما ، حتى نعلمها كيف تعيش ! ..

قالت ذلك امرأة « ليفاك » فجاوبتها « موكيت » فى اندفاع :

ـ أجل ! أجل ! يجب أن نجلدها ! ..

وكانت « سيسل » ترتعد كلها وسط هذه العاصفة من الهياج وهى تردد عشرين مرة :

ـ سيداتى ! .. أتوسل اليكن ، سيداتى ، لا تؤذونى !

لكن يدين باردتين كانتا قد أخذتا بعنقها ، اذ كانت الموجة البشرية قد دفعت بها الى ناحية « الموت الطيب » الذى كان يبدو ثملا من الجوع ومشدوها من بؤسه الطويل ، خارجا فجأة من اذعان نصف قرن ، خاضعا لدفعة حقد لا يفهمها ازاء هذا العنق الابيض ، وكأن به حاجة قاهرة الى ان يضغط ويضغط بأصابعه ، كحيوان مشوه شائخ يجتر ذكرياته .. وفى الوقت نفسه كانت النساء مصرات على كشف مؤخرتها .. والمجتمعون فى الداخل وقد تنبهوا الى أنها لم تدخل مع الاخرين أصابهم هوس من الخوف عليها ..

واندفع المدير وابن أخيه وفتحا الباب ، لكن الجموع قذفت بنفسها فى الحال على بوابة الحديقة ومنعتهما من الخروج ..

وظهر على سلم البيت والد البنت ووالدتها ، فاستطاع « اتيين » اخر الامر أن يخلصها من أصابع العجوز وأيدى النساء ، اذ واتاه الهام لتحويل السخط قبل أن تمزق البنت تمزيقا ، فرفع البلطة التى كان قد انتزعها من قبضتى « ليفاك » وهو يصرخ عاليا :

ـ الخبز كثير فى دكان « ميجرا » فلنحطمه ولنسوه بالارض !

وكان « ميجرا » فى مخبئه ببيت المدير قد بلغ ذروة الخوف على بضائعه التى راح يتخيلها وهى تنهب ، وأدراجه وهى تفتح وتفتصب، والاكياس تشق بطونها ، وكل شيء يؤكل ويشرب ، فلن يتركوا له حتى عصا يتسول بها خلال القرى !.. فبرز كالمخبول وتسلل من حديقة بيت المدير الى سقف مخزن مجاور ، طامعا ان يصل عن ذلك الطريق الى شباك بيته ، لكن الجموع رأته فوق سقف المخزن العالى ، فهللت وزأرت .. والرجفة التى أصابت الرجل جعلت قبضتيه تفلتان حيث كانتا تمسكان فهوى وتلقفه جدار قذف به على جانب الطريق وقد انبثق مخه من جمجمته المكسورة ، وامرأته تنظر شاحبة من وراء زجاج الشباك ..

حدثت لحظة من الروع ونسوا الدكان وتعلقت الابصار بذلك الجدول الرقيق الاحمر الذى كان يتدفق من الرجل الميت ، ثم أحاط النساء بالجثة ليشتمنها ويتشفين فيها .. كنا مدينات لك ، فها أنت أيها اللص قد قبضت !.. وما من امرأة فيهن الا أحست بالفرح ..

ـ انتظر يا لص !.. ينبغى ان أزيد فى سمنتك !.

كذلك قالت امرأة « ماهوى » التى طالما أذلها ، وبأصابعها العشرة نبشت الارض وتناولت من ترابها قبضتين ملأت بهما فم الميت فى عنف :

ـ خذ !.. كل يا من كنت تأكلنا ..

والميت راقد على ظهره وهو ينظر فى جمود بعينيه الواسعتين الثابتتين الى السماء التى يسقط منها الليل .. هذا التراب الذى حشى به فمه هو الخبز الذى أباه على الجائعين ، ولن يأكل بعد الان الا من هذا الخبز .. واندفعت المخبولة « لابروليه » فانتزعت من جسم الميت مزقة دامية ولوحت بها بضحكة انتصار ، وحيت اللعنات هذه الغنيمة البشعة ، وتذكرت كل امرأة أنها لن تأخذ بعد اليوم خبزا وتدفع الثمن من عفتها ، وهللن للحيوان الشرير الذى قضين عليه اخر الامر وتحررن منه .. ورفعت المخبولة مزقة اللحم الدامية على عصاها ومشت بها كالراية فتبعتها النسوة ، على حين كانت زوجته من وراء شباكها تتأمل المشهد فى جمود ..!

وفجأة ظهرت « كاترين » وهى تعدو فى فزع قائلة ان الجندرمة فى الطريق وان « شافال » هو الذى ذهب فجاء بها ، وقالت « لاتيين » فى شبه اعتذار :

ـ انج بنفسك ، فأنا مشمئزة منه ولا أريد أن يأخذوك !..

وسمعوا وقع ركض الخيل ففروا حتى لم يبق على الطريق غير الجثة ، بينما كان البورجوازيون غارقين فى عرقهم فى البيوت المغلقة واسنانهم تصطك دون أن يجرءوا على القاء نظرة ..

كان السهل يغرق فى الليل الكثيف ورجال الجندرمة يبرزون وهم يحرسون عربة حلوانى « مارشيين » التى كانت تحمل الحلوى الى وليمة بيت المدير !



ــ ٢٣ ــ

تولت حراسة آبار المناجم وآلاتها مراكز مسلحة ، واقيمت الحراسة على بيت المدير وبيوت بعض الاعيان ، ولم يعد يسمع على أرض الطرق غير مرور الدوريات البطيء ، وفى كل ساعتين كانت تدوى صيحات الحرس :

ــ قف من أنت ! .. تقدم بكلمة السر ! ..

وفى برد منتصف فبراير كان العمل لا يزال متوقفا فى كل مكان ، وكان العناد الصامت يواجه استعراض القوة ..

واستكن العمال فى البيوت فى ذلك الهدوء الكاذب وتلك الطاعة المقتصبة الصبورة لوحوش فى قفص تركز عيونها على المروض متأهبة لأكل عنقه اذا أدار ظهره .. وتحت هذا السلام الكبير العابس ظلت المعركة على هذا المستوى بين المضربين الصامتين والمناجم الميتة المحروسة بالقوة المسلحة ..

وكان التحقيق قد أثبت ان « ميجرا » مات من سقطته ، والشركة من جانبها لم تشأ أن تعترف بخسائرها واكتفت بأن أعدت كشفا بالمفصولين وأرسلت بطاقات أربعة وثلاثين عاملا من محلة العمال رقم ٢٤٠ وحدها ، ومن بينهم « ماهوى » و « ليفاك » .. لكن كل الحزم كان موجها الى « اتيين » الذى كان قد اختفى منذ مساء الحادث والذى كانوا يبحثون عنه دون أن يعثروا على أثر ..

وكانت الايام تمر وفى الجو احساس بانتظار النهاية ، أما الزعيم المختفى فقد عاش تحت الارض فى جحر « جانلان » الذى أبدع فى تموينه ، وصار الغلام الاعرج مورده الحذر الفطن ، هازئا بخداع الجندرمة والضحك عليها ، فجاءه بكل شيء الا ربطة شموع عزت على يده الجريئة الخاطفة .. وفى بداية الاسبوع الثانى قال له الغلام أن الجندرمة تعتقد أنه اجتاز الحدود الى بلجيكا ، فاستطاع الجراة على

الخروج من جحره عند هبوط الليل ..

كان فى شوق الى الحرية .. وكان من رأيه أن شهرا ثالثا من المقاومة يكفى للقضاء على الشركة التى ساءت حالة مناجمها ، لكنه فى الليلة التالية عاوده اليأس عندما علم ان مندوبى الشركة يفاوضون «دينولان» لشراء منجمه !.. ما هذا الغول الذى لا يشبع !.. يا للنفوذ الهائل لرءوس الاموال الكبيرة ، وكم هى قوية فى المعركة ! .. انها « تسمن » حتى فى الهزيمة بأن تأكل جثث الصغار الذين يسقطون الى جوارها فى المعركة ! ...

وعند منجم « فورو » كان يقف جندى شاكى السلاح ، ففكر « اتيين » فى الظلام وهو قريب :

ـ ولد صغير أشقر بوجه هادىء شاحب مبرقش بالنمش ، لماذا لا اكلمه وأجس نبضه ! ...

وببساطة من لا يكترث ظل يقترب من الجندى وهو يلتقط قطع الخشب القديمة من الارض ، وظل الجندى جامدا .. ثم كلمه ، لكن الجندى لم يكن ليفهم شيئا اكثر من انه اذا صدر له الامر باطلاق النار فهو يطلق النار ، حتى لا يعاقب .. لا فائدة !

وكان الثلج يكسو ذلك البلد الاسود ببياض لا نهاية له ، ولم يكن هناك خيط واحد من الدخان يتصاعد من أسقف المجموعة ٢٤٠ من مساكن العمال ، التى كانت بيوتها الخالية من النار فى برودة احجار الطريق ، كأنها رؤيا قرية ميتة ملفوفة فى كفنها ..

وعلى طول الطرق كانت الدوريات التى تمر هى وحدها التى تترك اثار اقدامها الموحلة ، ثم لا فحم ولا بترول فى كل بيت ، ولا طعام !..

وفى بيت «ماهوى» كان « الاب رانفييه » القسيس الجديد ـ دون ان يدهشه هذا البيت الميت الخالى من النور والنار والخبز ـ يحدث الاسرة قائلا ان الاغنياء سرقوا سلطة الله ، وانه هو لا يفعل مثل القسس الاخرين ، فهو لا يأكل فى بيت المدير ، وهو أيضا ثائر ، ثائر انجيلى .. لكن « ماهوى » أسكته فى زمجرة :

ـ لا جدوى من كل هذا الكلام ، وكان أولى لك ان تبدأ بأن تحمل لنا رغيفا !..

وجاء « اتيين » بعد انصراف القسيس ، على مألوف عادته فى قلب

الليل ليزور هذه الاسرة الصديقة التى عرفت وحدها مخبأة وحفظت سره .. وكان هذا المجهول الذى انتهى اليه أمره قد أحاطه بأسطورة تقول أنه سيعود الى الظهور ومعه نجدة وصناديق ذهب ، اذ كان ايمان الاغلبية به باقيا .. لكن البؤس الذى يفعم هذا البيت ملأ نفسه يأسا فلما دار كلامهم حول تفكير الشركة فى استخدام عمال من بلجيكا بحماية القوات المسلحة ، بدأ هو يشير من طرف بعيد الى الاستسلام ، لكن امرأة « ماهوى » نفسها انفجرت صارخة فى وجهه :

ـ ماذا تقول ؟!.. أنت من يقول هذا !.. اذا كررت هذا الكلام فانى أنا المرأة بيدى أن أصفعك !..بعد كل ماعانيناه نعود خانعين الى الظلم ؟. لا ! .. لا !. انى انا الان أقتل وأحرق ولا أسلم أبدا !..

وأشارت الى رجلها القابع فى العتمة بحركة مهددة :

ـ واذا عاد رجلى الى المنجم فسوف انتظره على الطريق لابصق فى وجهه وأدعوه بالجبان !..

وتراجع الشاب أمام هذا الغضب الذى هو خالقه فى البداية ، ليس هو الان الذى يتكلم فى السياسة بل هى هذه المرأة بنت الشعب التى تنادى بالجمهورية وتخليص الارض من اللصوص الذين يسمنون من عمل الجياع ! ..

هاهى ذى تتكلم مرة أخرى :

ـ أجل !.. أنا !.. بأصابعى العشرة سأسلخهم .. لقد كفانا استسلاما ولقد جاء دورنا .. وأنت نفسك كنت تقول هذا .. انى عندما أفكر فى الاب والجد وأبا الجد قد تعذبوا كما نتعذب ، وأن ابناءنا واحفادنا سيعانون ايضا نفس العذاب ، فان هذا يجعلنى مجنونة تبحث عن سكين .. وما فعلناه فى ذلك اليوم لم يكن كافيا ، كان ينبغى ان نهدم « مونتسو » ونسويها بالارض الى آخر حجر فيها .. وانى لنادمة لانى لم أترك العجوز يخنق تلك الناعمة ، كما يتركون هم الجوع يخنق صغارى أنا !..

سقطت كلماتها فى هذه المرة كضربات البلطة ، فحياها الشاب فى خشوع :

ـ لقد اسأت فهمى .. انما أريد أن نصل الى اتفاق مع الشركة التى ساء حال مناجمها ولاشك فى أنها تقر التسوية ..

فزأرت المرأة :

ـ لا !.. لاشىء من هذا ! ..

وكان العجوز « بون مور » يصغى الى ثورة زوجة ابنه وهو محتفظ بجمود شجرة معمرة انحنت بفعل الريح ، بينما كان زوجها يتمشى دون أن يتلفت ، بين خزانة الطعام الخاوية والموقد الميت ..

وساد الصمت لولا بكاء الصغار من الجوع ..!



— ٢٤ —

— لو أن يدى ملكت لاخذت الارض ، هكذا وحطمتها فتاتا حتى تدفنوا جميعا تحت الانقاض !..

كان الفوضوى « سوفارين » يكلم « اتيين » الذى لجأ اليه يستفتيه فى حدث جديد داهم هو وصول العمال البلجيكيين فى الليل وموجة اليأس العارمة التى احدثها وصولهم .. كان من رأيه ألا فائدة من كل هذه السخافات .. ان عمال القبعات فى مرسيليا الذين ربحوا مائة ألف فرنك فى جائزة اليانصيب الكبرى قد اشتروا فى الحال عقارا قائلين انهم سيعيشون بعد ذلك دون أن يعملوا شيئا !.. أتفهم هذا ، أنت ؟.. هذه هى فكرتكم ، كلكم ، يا عمال فرنسا ، ان تدفنوا كنزا حتى تأكلوه وحدكم فيما بعد ، فى ركن من الانانية والكسل ..

ومهما صرختم ضد الاغنياء فان الشجاعة تنقصكم فلا تردون للفقراء المال الذى يبعث به الحظ اليكم .. ولن تكونوا أبدا جديرين بالهناء ما دام لكم شىء تملكونه وما دام حقدكم على الظالمين لا ينبع الا من حاجتكم المسعورة الى ان تكونوا بورجوازيين فى مكانتهم !.. وكلكم محصودون يوم يولد ذلك الذى سيعدم جنسكم ، جنس الجبناء والمستمتعين !.. وكانا يتكلمان فى الخمارة ، فحدث صمت طال حتى عكره ظهور « شافال » فجأة وهو يدفع « كاترين » أمامه ، وكان قد سكر فى جميع خمارات « مونتسو » ثم جاءته فكرة الذهاب الى خمارة « الافنتاج » ليظهر للاصدقاء القدامى أنه ليس خائفا ..

ودخل وهو يقول لعشيقته :

— ستشربين هنا كأسا وأنا أكسر بوز أول من ينظر الى بجنب عينه !!

ودهش من وجود « اتيين » عند « رأسنير » ومن تصافيهما بعد ما كان بينهما ، وأخذت « كاترين » هى الاخرى عندما رأت الشاب ، لكن صاحبها تهكم :

ـ مدام « راسنير » ! علينا بالبيرة فاننا نحتفل باستئناف العمل غدا فى كل المناجم !..

والخمار والرجلان الاخران لم يتحرك احد منهما من مكانه ، لتطاول « شافال » السكران :

ـ أعرف قوما قالوا انى جاسوس ، وانتظر منهم أن يكرروا هـذا القول أمامى ، حتى نتفاهم أخيرا !

لم يرد أحد ، وأدار الرجال رءوسهم وتأملوا الجدران ، فاستمر بصوت أعلى :

ـ هناك الكسالى وهناك غير الكسالى .. وأنا ليس عندى ما أخفيه ... لقد تركت منجم « دينولان » وسوف أنزل غدا فى منجم « فورو » مع اثنى عشر بلجيكيا تحت امرتى ، لانهم يقدروننى .. فاذا كان لاى شخص اعتراض على هذا فانه يستطيع ان يقولها ، وسنتكلم ..

فلما قوبل تحديه بنفس الصمت المترفع تفجر غضبه على صاحبته نفسهـا :

ـ لنقارع كأسينا نخب هلاك كل السفلة الذين يرفضـون أن يشتغلوا !..

واخرج من جيبه قبضة من العملة وعرضها بمفاخرة السكران قائلا انه بعرق المرء يكسب هذا ، وانه يتحدى الكسالى ان يبرزوا نصف فرنك ! . وعنـد هذا الحد نهض له « اتيين » فى حزم هادىء :

ـ اسمع !.. أنت تضايقنى آخر الامر !.. اجل أنت جـاسوس ونقودك يفوح منها نتن الخيانة ، ويقرفنى ان ألمسك ، لكن لا بأس !.. فلقد وجب أن يأكل أحدنا الاخر ..

فضم « شافال » قبضتيه :

ـ أخيرا !.. يجب ان يقـال لك الكثير حتى تثور حميتـك يا جبـان !..

وتقدمت البنت بينهما بذراعين متوسلتين وان كانت قد أحست فى هذه المرة ضرورة المعركة ، ثم تقهقرت من نفسها دون أن يدفعها واستندت الى الحائط ..

وببساطة رفعت زوجة صاحب الخمارة كئوسها حتى لا تسكر ، ثم جلست فى مكانها دون أن تبدى فضولا غير مناسب ..

وتدخل «راسنير» وعاند فى تدخله حتى أخذه « سوفارين » من كتفه ورده الى المنضدة وهو يقول له :

ـ هذا لا يعنيك ، فان أحدهما زائد ، والبقاء للاقوى !..

واشتبك الرجلان فى ملاكمة طالت قبل أن يصرع « اتيين » الشاب المتحدى بلكمة ألقته على ظهره، لكنه ما لبث أن جمع نفسه وهجم من جديد وقد ندت عن حلقه زمجرة وحشية ، وخرجت يده من جيبه فما أن رأتها « كاترين » حتى انطلقت من قلبها بالرغم منها صرخة كبيرة ادهشتها ، كما لو كانت اعترافا بايثارها أحد الرجلين على الاخر، ذلك الايثار الذى كانت هى نفسها تجهله :

ـ خذ حذرك !.. ان معه السكين !

تفادى الطعنة الاولى وقبض على معصم خصمه ودار بينهما صراع انتهى بسقوط السكين الى الارض والتقاط الاول لها فأمسك بغريمه تحت ركبته وهدده بفتح حلقه :

ـ هذه نهايتك أيها الخائن !..

وكان صوت الوراثة فى تلك اللحظة يدوى فى نفس « اتيين » . صوت فظيع صادر من احشائه ، يصم اذنيه ، يضرب فى رأسه بدقات مطرقة ، جنون فجائى بالقتل ، حاجة الى تذوق الدم .. لكنه لم يكن ثملا ، فقاوم الشر الموروث وقذف بالسكين وراءه وأهاب بالمهزوم فى صوت أجش :

ـ انهض واذهب !..

ومسح « شافال » بجانب يده الدم الذى كان يسيل من أنفه وجر ساقيه ، لكنه عندما رأى «كاترين» تريد أن تتبعه شد قامته. وانفجر حقده فى طوفان من القذارات قبل ان يحذرها من وضع قدمها بعد اليوم فى بيته ، اذا كانت حريصة على جلدها .. وصفق الباب ..

وساد السكون فى الخمارة الدافئة التى لم يبق فيها غير الكرسى المقلوب ودم يشرب قطراته الرمل المنثور فوق البلاط .. وبعد قليل خرجا من الخمارة معا وسارا فى صمت .. هو وهى .. رفضت أن تعود الى بيت أهلها بعد أن تخلت عنهم ، فمشيا جنبا الى جنب فى الليل ..

وقالت له وهى تقبله :

ــ ان التنقل بين الرجال يقرفنى !.

وتبدت له الحقيقة .. صحيح انه ليس فى انتظارها عند « شافال » غير الصفعات ، لكن ماذا عنده هو أحسن من هذا يقدمه لها ؟

حياة الهروب والبؤس وليل بلا غد !..

لعلها على حق ، فأوصلها فى صمت الى بيت « رجلها » وراقب البيت لحظات بعد دخولها وهو يرهف سمعه متوقعا صراخ المرأة المضروبة ، لكن نافذة فى الدور الاول أضيئت ثم فتحت وهمست منها البنت :

ــ لم يعد بعد من الخارج ، وسأرقد .. اتوسل اليك ان تذهب !

وانصرف حزينا ، فلما حاذى منجم « فورو » نظر فرأى «جانلان» يقفز فجأة من الظلمة فوق كتفى الجندى الحارس فى وثبة قط متوحش ، ويغمد سكينة فى عنقه !

وكان الحادث خاطفا لم تصدر عنه الا صرخة مختنقة من الحارس ثم بزغ القمر من وراء السحب وتألق نوره على المشهد ، فاندفع « اتيين » فى ذهول ليجد الغلام القاتل على يديه ورجليه أمام الجثة المفرودة الذراعين ، والتى كان السكين لا يزال مغروسا فى عنقها الى مقبضه .. وبلكمة ناقمة ألقى الغلام عند الجثة ، وشفع اللكمة بركلة ، وواجه وهو يتلفت تلك السكين المغروسة فى العنق بمقبضها العظمى الذى نقشت عليه بحروف سوداء كلمة « حب » .. تنقلت نظرته من العنق الى الوجه ، فاذا به الجندى الذى تحدث اليه ذات مرة وعرف منه ان اسمه «جول» وأن له أما وأختا تنتظرانه فى بلدته البعيدة .. واخذته الشفقة بهذا الوجه الاشقر المبقع بالنمش ، ثم نادى الغلام الخائف المبتعد وقال له :

ــ تناول الساقين ! .

وتناول هو الكتفين بعد ان علق بندقية القتيل وراء ظهره ... واحتواهما الليل ..

وأخيرا هبطا بالجثة فى المنجم المهجور فسارا بها كيلو مترا تحت الارض حتى وضعاها تحت صخرة تدعمها أخشاب عطنة متهاوية ، ووضعا الى جوارها البندقية ، ثم هشما الدعامات فهوت الصخرة انقاضا وسحقت تحتها الجثة سحقا بطيئا ..

— ٢٥ —

نظرت البنت الى الافق فرأت جمعا من الرجال والنساء مقبلا من ناحية المساكن ، ورأت الجنود الستين يسدون بسلاحهم الباب الوحيد المفتوح ، وقد صفهم الضباط صفين لصق جدار المنجم الحجرى ، حتى لا يقع عليهم هجوم من الخلف ..

وكان العمال الغاضبون قلة لا يكادون يبلغون الثلاثين ، فوقفوا عن بعد يتصايحون بكلمات عنيفة مبهمة ويلوحون فى غضب ، حتى سندتهم موجة أخرى أقبلت من المساكن بقيادة « ليفاك » الذى كان يهتف بسقوط البلجيكيين .. ثم اقترب « اتيين » من الضابط وقال له انه لا جدوى من مجزرة عقيمة وأن العدالة فى جانب المضربين، وكلنا أخوة ، وينبغى أن نتفاهم ..

وكان الضابط شابا طويلا نحيلا فى نحو الثامنة والعشرين ، بوجه قانط وحازم ، فقال وهو محتفظ بتصلبه العسكرى :

ــ لا تجبرونى على أداء واجبى ! ..

ومن وراء النوافذ ظهرت وجوه المهندس « نيجرل » ورئيس العمال « دانساير » ثم وجه اخر هو « سوفارين » الذى لم يغادر مكنته يوما واحدا منذ بدء الاضراب ..

هذه هى النهاية ، لم يعد هناك الا القتال والموت ..

لكن موجة العمال الصاعدة اندفعت أول الامر نحو الجنود يهيبون بهم أن لسنا ضدكم فانصرفوا ، كلنا من الشعب وواجبكم أنتم أيضا أن تكونوا مع الشعب .. وفى جمود استمع المسلحون الى نداء الاخوة ، ومن ورائهم كان ضابطهم قد استل سيفه من غمده عندماوجد انهم صاروا مئات وانهم يضغطون على جنوده ويهددون بسحقهم على الحائط ، واصدر أمره باشهار السنكى .. فأطاعوا ، وواجه صدور المضربين صفان من أسنة الفولاذ ، وفتح « ماهوى » سترته وقميصه وعرض صدره العارى ولحمه المشعر الموشوم بالفحم واندفع نحو

أسنة السنكى فأجبرها على التراجـــع ، فظيعا بوقاحة لســـانه وبسالته . .

وقبض الجنود فى الاحتكاك على ثلاثة من بينهم «ليفاك» وأودعوهم فى مكان ظاهر من حجرة رؤساء العمال ، فتعالت الصيحات طالبـــة الافراج عنهم فى الحال ، وتطايرت الاحجار فجرح جبين الضابط كما جرح عدد من جنوده ، وفتح فمه كى يأمر باطلاق النار ، لكن البنادق كانت قد أطلقت الرصاص فى دفاع غريزى عن النفس،ثلاث رصاصات فى البداية ، ثم خمس ، ثم هزيم كتيبة كاملة ، ثم طلقات مفردة دون وحدها بعد سكون طويل . .

ظل الجمع جامدا لا يكاد يصدق أنهم أطلقوا النار ، ثم ارتفعت صرخات ممزقة وحدث ذعر مجنون وهروب متخبط فى الوحل . . وكانت « ليدى » قد أصيبت فى وجهها كما أصيب « ببير » تحت الكتف اليسرى ، فمات وهو يحتضنها . . ورصاصة أخرى قتلت المـــرأة «لابروليه» وأخرى دخلت فى فم « موكيه » واثنتان تلقتهما «موكيت» أخته فى بطنها . . اما تلك الرصاصة الاخيرة المفردة فقد ضربت قلب « ماهوى » نفسه وألقته على وجهه فى بركة ماء اسود ..

وعند هذا الحد من المعركة ظهر «الاب رانفييه » عائدا من عظته وقد رفع ذراعيه الى السماء — فى نقمة نبى — مستنزلا غضـــب الله على القتلة . . !

وتردد صدى رصاصات « مونتسو » فى باريس بدوى هائل ، وعبرت صحف المعارضة عن استنكارها ، وروت كيف جرح خمسة وعشرون وقتل أربعة عشر من بينهم طفلان وثلاث نســـاء . . أما الامبراطورية التى أصابتها تلك الرصاصات فى صميم كيانهـا فظلت تتظاهر بهدوء القوة العليا ، دون ان تتبين هى نفسها خطورة جرحها . . كان الامر عند حكومة الامبراطورية مجرد تصادم بسيط يؤسف له .. شيئا ضائعا هناك فى البلد الاسود البعيد عن الشارع البـــاريسى صانع الرأى العام ، وسرعان ما ينسى ! . . وتلقت الشركـــة أمرا رسميا بخنق المسألة ووضع حد لذلك الاضراب الذى تحول استمراره المقلق الى خطر اجتماعى . .

وفى الصباح وصل ثلاثة من مديرى الشركة وقيـــل انهم جاءوا

مسرعين ليفتحوا للساخطين المنسحقين أذرعا أبوية ، وطرد العمال البلجيكيون ، وأوقف الاحتلال العسكرى للمناجم ، ووئدت حكاية الحارس المختفى بزعم أنه فر من الخدمة ، لكن مديرى الشركة هؤلاء لم ينسوا فى الوقت نفسه ان يستمروا فى مفاوضة « دينولان» لشراء منجمه !



كانت المجموعة ٢٤٠ من مساكن العمال ممعنة فى مقاومتها النافرة عندما ألصقت على الجدران اعلانات صفراء كبيرة وفيها كلمات ضخمة قليلة تعلن أن جميع مناجم الشركة سيعاد فتحها صباح الاثنين، وبعد عودة العمل تفحص كل التحسينات الممكنة ، بعناية وعطف .. لكن دم الزملاء الذى صبغ الارض بحمرته كان يسد الطريق ، فلم يعد الى العمل فى الموعد المضروب اكثر من عشرة من طراز «بييرون» وتركهم الباقون يذهبون ويجيئون دون أن يتعرضوا لهم ! ..

وكانت هذه المقاومة العنيدة الجديدة بلا زعامة ، فقد ذهبت مع الريح يوم المجزرة بقية سمعة « اتيين » ولم يعد يظهر دون أن تتعقبه نظرات ملتهبة توجه اليه اتهاما صامتا وغضبة مكبوتة ..

ثم بدأت المحلة كلها تخرج له صارخة فى وجهه ببؤسها ..

وقال له « موك » الذى فقد فى المعركة ابنه « موكيه » وابنته « موكيت » عندما قابله :

ـ ألا تموت ياسافل كما مات أبناؤنا ! ..

والتقط قالب طوب وكسره وقذفه بنصفيه ، على حين صاح « شافال » الذى سره هذا الانتقام :

ـ كل له دوره ! ..

ووقف الشاب مذهولا يواجههم ويحاول ان يهدئهم بالكلمات التى طالما هللوا لها يوم كانوا فى يده .. لكن الايدى الساعية الى الطوب كثرت ، فان سحره كان قد ذوى ..

وحصروه عند واجهة الخمارة بعد أن أصابوه فى ذراعه ، فأدخله « واسنير » وسد باب الخمارة بكتفيه العريضتين :

ـ كونوا عقلاء يا أصدقائى فأنتم تعرفون أنى ما خدعتكم يوما ، أنا .. كنت دائما مع الهدوء ، ولو انكم استمعتم لى لما وصلتم الى

هذا الحال ..

وواتته بلاغته السهلة فاستمر يتكلم فى عذوبة الماء الدافىء المهدئة، وعاوده كل نجاحه الغابر ، واسترد بلا جهد صيته القديم ، كما لو ان هؤلاء لم يسموه منذ شهر بالجبان .. وارتفعت أصوات تؤمن على كلامه حتى فاضت المرارة بنفس الشاب المختفى داخـــل الخمارة ، وتذكر نبوءة هذا الرجل فى الغابة يوم قال له ان له هو الآخر يوما تتنكر له فيه الجماهير .. ان الجموع التى خفق قلبها مع قلبه فى ليلة الغابة هى الآن التى ترجمه ! ..

انه لم يقدهم بل هم الذين كانوا يقودونه الى صنع أشياء ما كان ليصنعها بدون نشوة الجمع الزاحف وراءه !

وعند كل عمل من أعمال العنف التى مارسوها كان يغشـــاه ذهول الاحداث ، فهو لم يتوقع العنف ولم يرده ، وهاهم الآن يتهمونه بأنه وعدهم بحياة من الاكل والكسل ثم لم يف بالوعد !

وسمع الهتافات الحماسية فى الخارج بحياة « راسنير » الذى أغلق الباب بينما كان الجمع يتفرق ، وتبادل الرجلان النظر فى صمت ، ثم هز كل منهما كتفية ، وانتهيا بأن شربا البيرة معا ..

وفى اليوم نفسه كانت هناك وليمة عشـــاء كبيرة فى بيت « آل جريجوار » حيث كان يحتفل بخطبة المهندس «نيجرل» وكريمـــة البيت « سيسل » فتحول هذا الحفل من تلقاء نفسه الى احتفـــال رسمى بانتصار الشركة ..

وتبودلت الانخاب ! ..

الآن يأكلون وينامون فى سلام ! ..

وكان فى المدعوين «دينولان» وابنتاه ، وكان فى ذلك الصباح قدوقع عقد بيع منجمه للشركة دون أن ينتزع من أنيابهـا أكثر من المبلغ اللازم لتسديد ديونه لكنهم احتفظوا به فى المنجم بوصفه مهندسا أجيرا ..

وعندما انتقلوا بعد الاكل الى الصالون لشرب القهوة انتحى السيد « جريجوار » بابن عمه ركنا وهنأه على شجاعته فى ذلك القرار :

ــ ماذا تريد ؟ .. ان خطأك الوحيد كان المجازفة بالمليون الذى أخذته ثمنا لحصتك ، فها هو ذا قد ذاب ، بينما مليونى أنا لا يزال يطعمنى دون أن أعمل شيئا كما سيطعم أبناء احفادى ..

— ٢٧ —

شهد غبش الفجر القطعان الذليلة وهى تسعى نحو المنــــاجم فى انكسار ، واخذ «سوفارين» وهو يرقبهم يحصيهم ويعدهم كما يعد الجزار الماشية عند مدخل المجزر ..

وارتعد عندما رأى وسط هذا الخيط الزاحف صاحبه «اتيين» نفسه .. زعيم الاضراب !

تقدم منه وأوقفه وتناوله من كتفه ودفعه بعيداً :

ـ عد ! .. الا تسمع ! .. عد من حيث أقبلت !

لكنه عصاه ، فتركه وتراجع ، وجمد فى العتمة وهو يتبعه ببصره حتى هبط مع الهابطين الى الاعماق السوداء ..

وكان يعرف انهم لن يجدوا فى بطن المنجم عملا ، لانه هو فى تلك الليلة انقض فى جوف الظلام على تلك الاعماق وأحدث فيها تخريبا دقيقا ، كى يقتل فى النهاية هذا الوحش الشرير الفاغر الفوهة دائما الذى كم ابتلع من لحم البشر ..

نزل فى ذلك اليوم ثلاثمائة واثنان وعشرون عاملا ، أى ما يقارب نصف عدد عمال ذلك المنجم القدماء كلهم ، وبعد ساعة من نزولهم وقعت الفاجعة ..

انهار بطن البئر وتدافع العمال فى رعب وسط مياه متدفقة كالطوفان وردم يتساقط فوق رءوسهم ، وتقطعت السبل بعدد قليل منهم عرف على الفور هول الكارثة وأدرك أن القفص لن يتمكن الان من النزول فى بئر غمرته المياه .. وعندما أحصى الاسطوات مصابيح العمــــال الناجين وجدوا منها مئتين وخمسة وخمسين .. لكن عددا كبيرا من العمال الناجين من الانهيار اعترفوا بأن مصابيحهم سقطت من أيديهم فى لحظات الروع ، فحاولوا أن ينادوا بالاسماء ، لكن بعض الناجين كانوا قد فروا من المكان فى رعب . ولم يتفق أحد على عدد الرفاق الناقصين ..

لعلهم عشرون ، لعلهم أربعون .. لكن كان هنـــاك على أية حال يقين واحد .. هناك زملاء فى أعماق المنجم ، وهذا صراخهم يتـــأدى الى الاسماع واهنا من خلال حشرجات المياه والدعائم المتهاوية ، ينحنى من يريد ان يسمع عند فوهة البئر ..

وتعالى النواح عندما أقبلت جموع النساء ، فظهر لهن « نيجرل » وقال انه سينزل بنفسه فى سلة صغيرة ، ثم تكوم فعلا فى الســـلة المتأرجحة فى طرف السلك وهو ممسك مصباحه بيد وحبل الاشارة باليد الاخرى ، وتحركت البكرة على مهل واختفى المهندس فى البئر الذى لا تزال تتصاعد منه صرخات العمال المحاصرين ..

لم ير شيئا غير مألوف حتى بلغ مسافة ثلاثمائة متر ورأى الكارثة التى أرعدته ، فكل دعامات البئر الخشبية تناثرت واندفع من ورائها رمل أصفر فى نعومة الدقيق وكتل كبيرة ومياه من باطن الارض تتدفق وتعلو ولا سبيل بعد تلك المسافة الى اقتحامها ..

وشد حبل الاشارة عندما رأى جدار البئر على ارتفـــاع مائة متر فوقه وقد بدأ يتشقق ويتحرك ويطلق جداول صغيرة .. هذا شىء . يمكن أن يتم بدون تخريب متعمد ! .. ولن تمض ســـاعات حتى ينتهى البئر وينهار كله ويموت منجم « فورو » ميتته الكبرى ..

وكان المدير فى انتظاره عندما صعد ، فأسر فى أذنه أن الحادث متعمد وقال انه رأى التخريب بنفسه ، فوقف «هينبو» منسحقا من الرعب أمام هذه البسالة المجنونة التى خاطر صاحبها المجهول بحيـــاته .. ترى من يكون ؟

وارتفع صراخ النساء يطلبن اعلان اسماء المفقودين ، على حين كان « سوفارين » يدخن سجائره مستعينا بها على الصبر ، دون أن تفلت عيناه شيئا مما يجرى أمامه ..

ثم هزت الارض زلزلة ارتعد لها المنجـــم كله ، ثم زلزلة ثانية من انهيارات داخلية متعاقبة تزمجر اصداؤها زمجرة بركان يتفزز للثوران .. وفى أقل من عشر دقائق كانت قبة البئر تنهار امام الشعب الخاشع المذعور ، ثم توقف الانهيار الباطنى وسكنت الضجة الفظيعة وســاد سكون عظيم ..

وفجأة تقلصت الارض فى تشنج أخير ابتلع المكنة العملاقة بعد أن

قاومت قليلا وهى تتحطم ، ثم زحفت ، ثم غاصت فى بطن الارض مع مابقى من المبانى ، ولم يبق واقفا فى مكانه غير المدخنة التى يبلغ طولها ثلاثين مترا ، لكنها كانت تترنح مثل صارى سفينة فى اعصار ..

وكانت آلاف العيون التى تتطلع من بعيد الى هذا المشهد الرهيب تتوقع أن تتفتت المدخنة وتتطاير هباء ، فاذا بها تغوص فجأة بطولها كأن الارض شربتها ! ..

لقد انتهى ، انتهى الوحش الشرير الشره وما عاد ينفث لهاثه الضخم المتصل ! . .

ولاذ الناس بالفرار وهم يجأرون بالخوف عندما رأوا فى مكان الوحش الذى أكل حياتهم حفرة كأنها فوهة بركان خامد ، عمقها خمسة عشر مترا وممتدة من الطريق الى القنال بعرض أربعين مترا على الاقل على حين امتد منها لسان فى الارض كالشق حتى بلغ خمارة «راسنير» وصدع واجهتها .. ثم انشقت ضفة القنال فتدفقت المياه فى وثبة جعلت من مكان المنجم المخسوف بحيرة موحلة ، كأنها واحدة من تلك البحيرات التى ترقد تحتها مدن ملعونة ..

هنا نهض « سوفارين » من مرصده وابتعد عن المنجم الذى نسفه دون أن يلقى نظرة الى الوراء ، وتضاءل ظله ثم ذاب فى ظل الليل وامتزج به ، ذاهبا الى المجهول ، الى كل مكان يوجد به ديناميت للنسف وللاستئصال وللابادة ..

ومن باريس تلقى مدير الشركة الامر بتنظيم جهاز واسع للتجسس، وطرد الرجال الخطرين واحدا بعد واحد ، وبلا ضجة ، أولئك الذين يشتبه فى اشتراكهم فى نسف المنجم ..

أما مهندس الحكومة الخبير فقد قرر بعد تحقيق سريع أن الحادث طبيعى ، فآثرت الشركة أن تسكت وتقبل التأنيب ، واندفع «نيجرل» وجماعة من العمال لانقاذ المدفونين ..

وكانت الفكرة هى محاولة شق طريق من أعماق منجم «ريكيـار» المهجور الى أعماق منجم « فورو» التى أطبقت على بعض الزملاء ، لعل هناك أملا أخيرا فى انقاذهم ..

ومر يومان ، وفى اليوم الثالث كانوا قد أتموا عملا متصلا شقوا به نفقا ضيقا بلغ من ضيقه ألا يعمل فيه غير عامل واحـــد يستبدل به غيره كل ساعتين ، وكان الفحم المستخرج يوضع فى سلال تخرج من يد الى يد فى سلسلة طويلة من الرجال ..

وفى اليوم التاسع كانوا بعد جهود خارقة قد تقدموا اثنين وثلاثين مترا ، فسمعوا يدا تدق بطن الصخر وتعلن أنها هنا حية ! ..

وكل قلب الاقليم كان يخفق هناك ، معهم ، تحت الارض !

وكان « زخارى » أحد عمال خمسة يعملون فى ذلك اليوم فى النفق، فكان يفلق الصخر بجنون وهو يتصور أن أخته «كاترين» لا تزال حية.. وكان يعمل بلا مصباح لان الاوامر المشددة كانت تقضى بعدم ايقـــاد المصباح فى أعماق النفق نظرا لتسرب الغازات وتكثفها ، لكنـــه — فى لهفته — فعلها ، وفى الحال انفجرت صاعقة من النار وخرجت من النفق كما لو كانت خارجة من فوهة مدفع ، والتهب الجو ، ومر هذا الاعصار بالعمال الاربعة وصعد فى البئر وانبثق فى ضوء الشمس قاذفا الصخور والانقاض ..

وبعد ثلاث ساعات من الجهود والمخاطر نزلت جماعة اخرى وكافحت

وصعدت بالضحايا الخمسة .. لم يكونوا موتى لكن حروقا وجروحا فظيعة كانت تغطى أجسامهم التى تفوح منها رائحة لحم مشــوى .. كانوا يطلقون انينا متصلا متوسلين الى الآخرين من فرط العذاب ان يريحوهم ويجهزوا عليهم ..

والناس ، النساء والرجال ، كانوا يرتعدون

حتى ظهرت جثة «زخارى» .. كانت أمه صامتة ، أماالآن وهوأمامها فحمة ســـوداء مبهمة بلا رأس فقد فاضت مواجعها .. !

وعندما وضعوا هذه البقايا الرهيبة فوق محفة ، مشت أرمـــلة « ماهوى » وراءها بخطوات آلية وبلا دموع ..

كانت تحمل طفلتهاالصغرى بين ذراعيهاوشعرها تجلده الرياح،فلما أوصلته الى امرأته « فيلومين » تركته لهـــا فى صمت وعادت بنفس الخطوة الى مكان الفاجعة ..

لقد شيعت ابنها ، وهى تعود الآن لتنتظر الابنة ! ..

لكن أياما ثلاثة أخرى مرت ولم يعد الذين عادوا الى النفق يسمعون تلك الدقات الخافتة التى كانت تستحثهم ..

هل ماتوا ؟ ..

هل هم كثيرون ؟ ..

فان كانوا أحياء ما يزالون على قيد الحياة فما حالهم وهذا هو اليوم الثانى عشر منذ دفنوا ؟ ! ..

وكانت الحادثة الجديدة قد ضاعفت فضول البورجـــوازيين فى « مونتسو » فنظموا رحلة الى « ريكيار » المنكوبة اشتركت فيها« مدام جريجوار » وزوجها وابنتها « سيسل » و « مدام هينبو » وابنتـــا « دينولان » وأبوهما .. وكان هدف هذه الجماعة أن تعرف من«نيجرل» حالة ممرات المنجم وحكاية المدفونين أحياء ، قبل أن يتعشوا معا فى المساء ..

ومرت الجماعة بالمكان الذى كان يشغله منجم « فورو» فأخـــرجت «جان دينولان» كراستها ورسمت المنظر ، متحمسة لفظاعة«الموتيف» .. بينما كانت أختها «لوسى» جالسة بالقرب منها فوق حطام عربة وهى تصف المنظر بأنه « هائل » !

أما « سيسل » وأمها فقد جاءتا معهما بصدقات لتوزيعها فى مساكن

العمال ، تكملة للرحلة .. اذ كان موت «زخارى» المفجع وهو ينبش بطن الارض بحثا عن اخته قد ملأهما بالشفقة على تلك الاسرة التعسة التى كان البلد كله يتكلم عنها ٠٠ ولم يكن عطفهما على الاب « ماهوى » قاتل الجنود الذى وجب قتله كالذئب ، انما هى الام التى مست قلبهما هذه المرأة الشقية التى فقدت ابنها بعد زوجها والتى ربماكانت ابنتها الآن جثة تحت الارض .. والجد عاجز على ما يقال أيضا ، وطفل اعرج، وبنت ماتت من الجوع اثناء الاضراب .. ياله من بؤس !



لم يكن فى بيت « ماهوى » أحد فخرجت امرأة « ليفاك »من البيت المجاور على دق الباب وقالت ان جارتها التى يقصدونها فى «ريكيار» وأن مفتاح البيت معها لانها تعنى بالطفلين « لينور » و « هنرى » فى غياب أمهما ، وان «الجد» موجود فى الداخل ..

وفتحت المرأة الباب ، وما رأوه أوقفهم على العتبة ..

كان الشيخ« الموت الطيب » مسمرا على كرسى وعيناه شاخصتان، أمام الموقد البارد ، وحوله الصالة العارية الا من صور الامبراطور والامبراطورة - التى كانت شفتاها الورديتان تبتسمان بعطف رسمى - ولم يتحرك الرجل العجوز ، ولم تطرف عيناه فى الضوء الذى نشره الباب المفتوح ، وظل جامدا فى هيئته الغبية ، وعند قدميه طبق ملىء بالرماد كأنه طبق قطة يوضع لها لتتلقى فيه بأقذارها ..

وقالت امرأة « ليفاك » مراعاة لخاطر السيدات الانيقات :

- لا تهتموا اذا كان قليل الادب ! ..

لكن انتفاضة هزت الشيخ وشهقة عظيمة صعدت من بطنه ثم بصق فى الطبق بصقة ثقيلة سوداء ، ثم استرد جموده كأن لم ير هؤلاء الذين دخلوا عليه ..

واضطربت الزائرات ومرافقوهن وغثيت الانفس من التقزز ، لكنهم حاولوا مع ذلك ان ينطقوا ببضع كلمات ودية ومشجعة ..

قال الاب السيد « جريجوار » فى تلطف كلفه جهدا كبيرا :

- يا رجلى الطيب ، هل أنت مزكوم ؟ ..

فظلت العينان الشاخصتان الى الجدار فى مكانهما وساد مرة أخرى الصمت الثقيل ..

فأضافت الام « مدام جريجوار » محاولة جديدة يائسة :

- يجب أن يعملوا لك شرابا ساخنا ! ..

فظل « الموت الطيب » محتفظا بجموده الصامت العنيد ..

وغمغمت «سيسل» الابنة المعبودة :

ـ قل لى يا بابا ! .. انه عاجز ! .. الم يقولوا لنا انه عاجز !..

ووضعت فوق المائدة كرنبا ولحما وزجاجتا نبيذ ، ثم أخرجت من ربطة ثانية حذاء كبيرا كانوا قد جاءوا به هدية للجد ، الذى لن يمشى أبدا ! .. فتلمظت امرأة «ليفاك» على الحذاء وتمحكت :

ـ لن يشكر ! .. كمن يعطى نظارة لبطة ، لا مؤاخذة !

وحاولت ـ عندما رأت كل هذا الرزق ـ أن تجرهم الى بيتها كى تستدر هناك شفقتهم عليها هى أيضا ، لكن «سيسل» تخلفت وحدها مع «الموت الطيب» .. كانت تحاول أن تتذكر أين قابلت هذا الوجه الشاحب الموشوم بالفحم ، ثم فجأة رأت فى ذاكرتها موجا من الشعب الصارخ يحيط بها وأحست يدين باردتين تضغطان عنقها .. انههو!..

وتلقت الاكتشاف برعدة ، وتأملت يديه الملقاتين على ركبتيــه ، يدى عامل قوتهما فى المعصمين .. قويتين رغم العمر ..

والشيخ ايضا كان يتيقظ شيئا فشيئا ويفحصها هو الآخر بهيئته البلهاء .. وفجأة صعد لهب الى وجنتيه وتقلص فمه فى حركةعصبية، ذلك الفم الذى كان يسيل منه خيط دقيق من لعاب أسود ..

وظل الاثنان أحدهما ازاء الاخر ، هى مزدهرة وسمينة وطازجــة من طول الكسل والرغد ، وهو قعيد منتفخ الساقين بالماء ودميمدمامة شنيعة ، دمامة حيوان مجهد ، حطام وراثة مائة سنة من العمــــل والجوع ..

وبعد عشر دقائق عاد ابوها وأمها مندهشين من تأخرها ، فأطلقا فى الحال صرخات فظيعة عنــــدما وجــداها ملقـــاة على الارض وهى مزرقة الوجــــه ، مخنوقة .. وكان فى عنقها بصمات حمراء لاصابع عمـــلاق ! ..

والشيخ كان ملقى الى جانبها دون أن يستطيع النهوض علىقدميه الميتتين ، وكان ينظــر اليهما بهيئته الغبية وعينـــاه مفتـــوحتان ، شاخصتان ..

وقد استحالت معرفة وقائع الحادث بدقة .. لماذا اقتربت هى من كرسيه ؟ وكيف استطاع وهو مسمر فى كرسيه ان يأخذ بعنقها ؟

واقتنع الجميع بأن حالة جنون مفاجىء أمام عنق البنت الابيض هى

سبب الحادث ، كأنه سم حقد صعد من اعماق الرجل الى جمجمته.. انها جريمة أبله بلا وعى !

وركع الاب والام يبكيان تلك المعبودة الصغيرة الميتة ويبكيان معها انهيار حياتهما .. ونظرت امرأة «ليفاك» الى الحذاء فخافت عليه ان يسرقه أحد من ذلك الجمهور الذى أقبل يتدافع ، ثم انه لم يبق فى بيت «ماهوى» رجل يلبسه ! .. وحملت الحذاء فى خفة ، وبدا لها مطابقا كل المطابقة لقدمى «بوتلو» صديقها !



— ٣٠ —

عندما وقعت الواقعة فى بطن الارض وبدأ الانهيار كان معهم خيل محبوسة فى الاسطبل ، فأخذوا يصرخون وأخذت الخيل تصهل ..

وكان هناك الحصان « معركة » فلما رأى نذير الموت انطلق وحده صارخا وغاب فى أعماق أحد الممرات ، فتبعه الرجال وهم يفكرون مثله فى الخروج من بطن الارض عن طريق « ريكيار » اذا كان الممر القديم بين المنجمين لايزال مفتوحا .. وكانوا عشرين ومعهم بعض المصابيح، لكنهم اختلفوا عند مفرق طرق فذهب « شافال » واثنان فى الممر الايمن واستمر الآخرون يجرون وراء الاب « موك » وفى آخرهم « اتيين » الذى تعطله « كاترين » وقد شلها الاعياء والخوف .. ثم حملها رغم مقاومتها ، فسبقهما الاخرون بخمسين مترا ، وذا بالممر ينسد فجأة بكتلة ضخمة منهارة فصلتها عن الاخرين .. وعادا فضلا الطريق وحدهما وانحصر أملهما الوحيد فى الصعود الى طبقات عليا تعصمهما من الماء الطامى ، ولعل نجدة تأتيهما هناك اذا انحسر الماء !.

وكان الماء قد بلغ صدريهما عندما أقبلت عليهما موجة عاصفةمزبدة حاملة عملاقا يصارع المجرى الضيق ليلحق بهما .. انه الحصان « معركة » الذى كان قد ركض فى الممرات السوداء التى يعرف طريقه خلالها فى تلك المدينة السفلى التىسكنها منذاحدى عشرة سنة،وكانت عيناه تريان بوضوح فى أعماق الليل الذى عاش فيه ، فظل يركض ويركض ويختار طريقه الى رؤيا شبابه البعيد ، الى الطاحونة التى ولد فيها على شاطىء النهر ، الى الذكرى الغامضة للشمس المتوقدة فى الفضاء كأنها مصباح كبير ..

كان يريد أن يعيش ، وكانت ذاكرة الحيوان تتيقظ ، والرغبة فى تنفس هواء السهول مرة أخرى كانت تدفعه لاكتشاف مخرج الى السماء الدافئة فى النور .. لن يقتله هذا المنجم بعد أن أعماه !.
وعندما رأياه مقبلا وراءهما كان يتمزق بين الصخور الضائقة بجسمه

الكبير ، وكان قد سقط فانكسرت أماميتاه ، لكنه تقدم بجهد كبير أخير بضعة أمتار ثم انحشر جنباه فظل مقيدا بالارض .. وتطاول رأسه الدامى باحثا عن مخرج ، بعينيه الكبيرتين المضطربتين ، وكان الماء يغطيه بسرعة ، فأخذ يصهل فى أنين متصل فظيع حتى انتهى نزعه المرعب بشهقة أخيرة ساد بعدها سكون عظيم ..

وتقدما بعد ذلك يصعدان وهما يسمعان هدير الانهيارات المستمرة فى الاعماق ويرقبان ارتفاع الماء الخارق فى فزع ..

والبنت خلال هذا الهروب من الموت تكرر بلا توقف ولا تغيير هذه الكلمات :

ـ لا أريد أن أموت ! . لا اريد ان أموت ! ..

ومع مرور الوقت بدأ الجوع يعضهما ، وفقدا الاحساس بالزمن فى قبضة الرعب ..

وعندما بلغا آخر مايسعهما صعودا تأدى اليهما من أمامهما ضوء مصباح أذهلهما وصرخ فيهما بحنق صوت رجل :

ـ مغفلون مثلى ..

وكان ذلك « شافال » محصورا أمام ردم وجريح الذراع ، فلما عرفهما ضحك ضحكة سرور سىء :

ـ أهذه أنت يا « كاترين » ! . لقد تبعت رجلك وتخليت عنى عند مفرق الطرق ، فالان نرقصها معا نحن الثلاثة !

والطريق مسدود من أعلى ومن أسفل ، ولا أمل لهؤلاء الثلاثة فى النجاة الا أن يدقوا على الصخور بأيديهم بنداء عمال المناجم عندما يعلنون عن وجودهم فى حالات الخطر ..

وأيام تمر ، والمحبس الضيق قد تسمم بالتنفس وبقذارات الحاجة الطبيعية ، التى كانت تتم أمام بعضهم البعض ..

وكأنما استبطأ الرجلان الموت فاستعجلا أن يذهب أحدهما من الوجود فى الحال ، فاشتبكا بسبب البنت وانتزع « اتيين » حجرا مشطوفا من الجدار وأهوى به على جمجمة « شافال » فسقط على وجهه ورأسه مشقوق ومخه يتناثر على سقف الممر .. ثم جر الجثة وألقى بها الى الماء الصاعد كى ينزعها من الحيز الضيق الذى بقى لههو ليعيش فيه مع تلك البنت التى اندفعت معه فى حمى ارادة الحياة

الفريزية ، فأخذا يحفران فى جدار الممر الفحمى ، هو بخطاف المصباح الخامد وهى بأظافرها ..

واستطاعا أن يحفرا فى أعلا الجدار مايشبه مقعدا مرتفعا ،فاعتلياه ودليا أرجلهما وهما منحنيان يجبرهما السقف على خفض رأسيهما : فصار الماء الان لايمس منهما غير الاقدام .. وتتابعت الساعات فى ظلام لايمكنهما من رؤية الموت وهو مقبل !

وفجأة خيل اليهما أنهما يسمعان ثلاث دقات ترن فى أصلاب الفحم، بعيدة ، ضعيفة ..

وردا الاشارة فى جنون ، وتسمعا بأن ألصق كل منهما أذنيــــه بالجدار ، فميزا من جديد ثلاث دقات بعيدة وضعيفة ..

انها النجاة ! .

وتكرر الدق من هنا وهناك ، فبكيا وهما يتبادلان القبــــلات .. هؤلاء هم الرفاق قد جاءوا ! . انهم فى الطريق ، قادمين من «ريكيار» .. يالها من مسافة ! . كم يوما أخذوها فى شق تلك المسافة فى قلب كتلة الفحم الصلبة ؟ .. لا ! لن يصلوا فى الوقت المناسب ! . واستبد بهما دوار الجوع وعذاب العنق الملتوى تحت السقف الخفيض ، وأكلا قطع الخشب المتعفنة ، ومن وقت الى اخر كانا ينحنيان فيشربان من الماء الذى تجاوز الركب ، فى راحة اليد ..

وفى اليوم السابع كانت هى منحنية لتشرب عندما صدم يدها جسم عائم أمامها ، فتحسسه هو بيده دون أن يعرف حقيقته ، لكنها أطلقت فجأة صرخة فظيعة :

ـ انه هو ! . هو ! . لقد لمست شاربه ! .

كانت جثة « شافال » هى التى هناك ، فبصقت « كاترين » الماء من فمها فى غثيان ، كأنه دم ، كأن كل هذا الماء الذى أمامها فى الظلام دم هذا الرجل ..

وركل هو الجثة فابتعدت ! .

لكنهما لم يلبثا أن أحسا بها تصطدم بسيقانهما مرة أخرى .. ثم مرة ثالثة .. فاضطرا أن يتركاه .. لم يكن يريد أن يذهب ! . كان يريد أن يبقى معهما ! .

وفى اليوم التالى كانا يزيحان الجثة قليلا قبل أن .. يشربا !

كم هو عنيد فى غيرته ! .

سيكون هنا حتى النهاية ، حتى وهو ميت ، كى يفرق بينهما !.

ويوم اخر ، ويوم اخر ، ودنت أصــوات الرفاق القــادمين فى قلب الصخر وعلت دقاتهم ، وتلك الجثة الملتصقة بهما لابد أنها الان منتفخة ومتعفنة ومخضرة .. لكنهما كانا فى شبه غيبوبة وأضعف من أن يردا على الرفاق لكى يهتدوا الى مكانهما ..

لم يعد فى ضعفه يهمــه أن يأتوا أولا يأتوا ، وكان فى حالة من البلة نسى معها الفرج القريب ..

وضمته فضمها وهما على تلك الحال من فقدان الاحساس السليم بالواقع ، وكانت ليلة زفافهما فى هذه الغمرة من اليأس الاخير ، فى هذا القبر ، على فراش الوحل هذا ! ..

وماتت فظلت فى حجره يومين !! .

ثم سمع أصواتا وتدحرجت عند قدميه صخور ورأى مصباحا ، فبكى .. لقد اقبلوا متأخرين !

وحملوه وسقوه ملاعق من حساء ، ومرت مدة قبل أن يعرف من بين منقذيه بعض الوجوه الفارقة فى حزن واسع ، فى بؤس الاجيال ، أقصى ماتسقط فيه الحياة من ألم !

وفى نور الشمس تهاوت امرأة « ماهوى » فوق جثة ابنتهــا وبثت الكون شكاواها ، على حين كانت جثث عديدة مصطفة على الارض ، والنساء حولها مجنونات يمزقن أثوابهن ويخدشن وجوههن ..

وعندما أخرجوه آخر الامر بعد أن عودوه على النور وغذوه قليلا ظهر « اتيين » للناس شبحا ناحلا أبيض الشعر ، فكان الناس يتنحون عن طريقه فى شيء من الاكبار والروع

وعندما بدأ يمشى على الارض مرة أخرى خيل اليه أنه يسمع تحت قدميه ضربات معاول الفحامين فى بطن الارض ، عميقة ، عنيدة ، دائبة .. كلهم هنا تحت القمح وتحت الشجيرات وتحت البنجر وفى كل مكان .. لم يموتوا أبدا ، وهذه شمس ابريل فى قلب السماء تشع فى مجدها ، باعثة الحرارة فى أرض تلد بلا توقف .. ومن البطن المغــذى كانت تنبثق الحياة وتتفتح البراعم عن ثمــار وأوراق خضراء ، وتنتفض الحقول بعملية الانبات والنمــو ، ومن كل مكان كانت تتفتح بذور

وتتمدد وتشق التربة طالعة للدفء والنور .. وصوت ضربات المعاول في الاعماق السوداء كان يزداد في كل خطوة وضوحا وعلوا ، كما لو كان الضاربون يقتربون من سطح الارض ، وفي أشعة الشمس المشرقة كان السهل كله مليئا بهذا الهدير وحده ، في صباح الشباب هذا ؛ وكان رجال جدد ينبتون على مهل لحصاد القرن المقبل ..

انتهت





بقلم

فيكي بادم

ترجمة وتلخيص

سعد مكاوي

- ١ -

أدرك الصبى المسكين حقيقة حياته الشاذة ورأى نفسه عينا لعين، مساء يوم من أيام الصيف الاخيرة ..

وكان يوم أحد ، وقد بدأه كما ألف بمسح حذاء ضيف أمه ، فلما خرجت بضيفها انطلق هو الى حيث تطيب له الوحدة ، الى الغابة ، وأوغل فى دروبها ومسالكها سعيا الى مكان منها يعرفه ، فمر أمام « أوبرج بترمان » دون أن تستوقفه انغام الموسيقى وأسرع الى غايته، لكنه وجد وطنه الروحى آهلا على غير العادة بالحركة والاصوات والمرح ، فقد احتل المكان حشد من فتية الكشافة وفتياتها ، وكلهم فى مثل سنه ، فى نحو الثالثة عشرة ، وكانوا يلعبون ويضحكون .. فوقف غير بعيد يتأمل مرحهم وقد عصبوا عينى فتى منهم فانطلق ممدود الراحتين باسم الثغر وراء الصبايا الرقيقات المرحات ، ثم وقعت فى يده احداهن فأمسكها وقبلها .. ولم يكد يفعل حتى انتشر فى قسمات وجه الصبى المسكين حزن وجهامة ، فما يحب هو هذا ، وما شهده مرة الا ذكر مايدور فى البيت من ألوان المعابثة والملاطفة بين أمه وضيف الليلة العابر .. ثم رأى صبية منهن تشرع قيثارها فدنا « يولا » من النغم على استحياء ــ كما عوده دهره ــ وأقعى فجلس .. وأطلت روحه من عينيه على الحسناء الصغيرة التى سمعهم ينادونها « رينى» وتفزز كائنه الحى الكامل فى كيانه الناقص .. ورأى الجماعة تتحلق من حول الجميلة العازفة أزواجا أزواجا ليرقصوا ويغنوا ، وترقرق فى روحه الدمع وود لو كان صوته بين هــذه الاصوات اللطيفة .. فأرسله خافتا حييا ، ثم أطلقه عاليا رنانا ..

نسى فى دفء الجماعة بؤس روحــه ، وعتمة عيشه ، والشــارع الضيق الوضيع الذى ولد فيه طفلا ضئيلادقيق الحجم ، فوق ساقين قصيرتين عجيبتين ...

فى طفولته الاولى كان اقرانه صبية الشارع الحقير ترتفع ضجتهم

العابثة طوال النهار وصيحاتهم المرحة ، أما هو فكان صاحب وحشة وتأمل وانطواء ..

كل ماكان يشارك به فى اللعب هو أن يستند الى جدار ، وينظر .. ولعله ينتظر دعوة الى اللعب ، لكن احدا فى الدنيا ـ حتى الاطفال لا يحفل بمسخ صغير مسكين !

فاذا هبط الظلام ، وهرع كل طفل الى بيته ، لبث المنبوذ الصغير فى مكانه يصنع لنفسه الصغيرة الكثيرة أحلامها ، وقد ارتسمت بسمة حائرة مسكينة على ذلك الوجه الصبيانى الذى تتوهج فى قسماته حكمة الشيوخ .. انه يدرك ان هناك فارقا غامضا بينه وبين سائر أطفال الشارع ، فهم يلقون بجماع أنفسهم فى ساحة اللعب ، وهم فيما يأخذون فيه من ضجة لايفكرون ، لأن التفكير وليد العزلة ، وهو يعلم ذلك حق العلم ، فان افكاره تستيقظ وتتوالد وتصطرع عندما تأخذ الوحدة بخناقه ويهمس دمه فى اذنيه ، واذ يستلقى فى فراشه فى صمت الليالى ، ينشد النوم وماله اليه من سبيل ، ويسمع من مرقده أنفاس أهله النائمين ٠٠ أمه صاحبة الدكان الارضى الصغير الذى صار معرضا للفوضى ، فتجد الفاكهة الفاخرة مستقرة فى سلال الخضر ، والزبد مختفيا وراء صندوق البصل ، ولكنك تجد فى المكان مرآة ! ...

والزبون فى الدكان يرى صاحبته بليدة خاملة تختال متطاوسة وتختلس النظرة بعد النظرة الى تلك المرآة العتيقة ٠٠٠ أما زوجها فقد استبد به السخط على ما آل اليه أمر تجارته لكنه سخط العاجز المقهور ٠٠ لقد كان فى زمانه رجلا متين البنيان قوى البأس عالى الهمة ، ثم حل ببدنه ضيف من السقم فسقطت أسنانه وهزل عوده وفترت همته وضاق صدره ، وقال الطبيب انه مرض السكر ٠٠ فجعل الرجل العليل يهرب من عمله الى الحانة ويعود الى بيته فى الليل ثملا ، ثم سقط ذات ليلة فى السلم الخرب فدميت ركبته من جرح ٠٠ وأبى الجرح على الايام أن يلتئم ، وساءت حاله فحمله أهل الحى الى المستشفى وتلقاه الاطباء هدية من هدايا الازقة ، فربطوه فوق منضدة وأغرقوه فى المخدر ، وعندما عاد الى وعيه وجد لنفسه ساقا من خشب ٠٠ فلما رأت زوجته الساق الخشبية ذهبت فاشترت لنفسها قبعة جديدة وعلقت المرآة فى الدكان ٠٠

كل هذا يعيشه المسخ « يولا » فى أحلام يقظته ٠٠ عين الزراية التى ترمى بها أمه أباه السكير الاعرج الذى يرتعد بين يديها من الهوان ! ٠٠

من صلب ذلك الاب وأحشاء تلك الام ، خرج الى الدنيا ذلك المخلوق الدقيق الغريب « أولريش » الذى يدعوه من يعرفه « يولا » وكل ما فى دنياه معتم ، لولا شعاع واحد من الحنان يهبط على عالم الوحشة الذى يعيش فى عذاباته ، من الدور الاول فى البيت ، حيث تقيم الانسة « برتشام » العانس النحيلة الضامرة التى يذكرمرآها الطفل المنبوذ بالديك العجوز ، بالريش حول عنقها وبذلك الشىء الاحمر الطرى الذى يعلو قبعتها ولا يستقر فى مكانه حتى يعود الى السقوط ذات اليمين كعرف الديك ! ٠٠

وعند العوانس ذخر من الحنان ، طالما ربتت بيدها العجفاءالمعروقة الباردة رأسه وهى توصيه بالتهام الطعام « لكى يكبر كالفتيان » ، فما تكاد تطرق هذا الحديث حتى يتحرك فى أعماق الطفـــل حزنه الصامت المقيم ٠٠ وهى تغريه بالتردد على مسكنها وتصف له تحفها الجميلة التى تنتظر زيارته ، وهو يجد الشجاعة يوما فيصعد اليها ليعود من عندها وهو يحمل فى رأسه عـــالما عجيبا من كتب ذات صور ، وأقداح ذات ألوان ، وموسيقى تنبعث من صندوق اسود ، وصدفتين كبيرتين ، ورديتين رائعتين ، احداهما ما أن يدنيها المرء من أذنه حتى تأخذ فى همس كالهدير ٠٠ وان صوتها العميق المستكن ليتكلم كما يتكلم البحر ٠ أما الصدفة الاخرى فهى خرساء ، وهى التى سلبت لبه وشغلت فكره ٠٠ أحبها حبا أخويا ، عميقا يائســا ينبض بالحنين ٠٠ لعل لها هى الاخرى صوتا ، صوتا نائما فىأعماق كيانها ، ولعلها تود لو وسعها أن تهمس وتتكلم وتحكى حكايتها ٠٠ وآه لو كان فى مقدوره أن يغوص بفكره وراء المعنى الاخرس الكائن فى قلبها ، فيقف على سرها !

أما بعد هذا فلم تكن الحياة جميلة ، منذ تلقته المدرسة فى عامه السادس ، يوم حزمته أمه ذات صباح فى سترة وحذاء كانا فى الزمان الخالى لاخيه الكبير وانطلق الى المدرسة بنية حسنة وارادة طيبة ، ولكنه لم يعد فى ذلك اليوم الى البيت ، وطالت غيبته أياما ثلاثة قبل

أن يظهر ويتلقى الضرب المبرح من أمه فى كبرياء الشهداء وصمتهم..
لقد رده القوم القساة عن العلم ساخرين من حجمه وهيئته .. طردته المدرسة !

***

ما هذا الجدار الضخم الشاهق الذى يسجنه فى ذاته الصلبة ؟..
لماذا لا يسمح له المجموع أن يمشى فى موكبه ؟..
وكيف يقاوم هذا العالم الشرير الذى يلفظه ؟ ..

لن يضحك ، ولن يبكى ، ولن يسأل الناس المحبة صدقة . بل يقعى فى دكان أمه أو ينهمك فى نقل الخضر والفاكهة الى الزبائن

ويفرض على نفسه العمل الشاق ، ويجد فى هذه القسوة على نفسه راحة لها ..!

وقالت الجارة العانس يوما لامه ان فى المانيا من حسن الحظ أطباء يصنعون المعجزات ، فحزت الكلمة فى نفس المرأة البليدة المشغولة بنفسها وأوقفت مخلوقها أمامها وتأملته طويلا ..

ولاول مرة رأت حقيقة ابنها : رأت الوجه المنفر ، والاعضاء المضطربة ، والصدر البارز ، والساقين الهزيلتين القصيرتين ، والقبضتين الصغيرتين تكادان تلمسان الارض .. صورة مما يرى النائم فى بعض الكوابيس المفزعة الخارقة . وفى الحال ذوى فى نفسها شعور الشفقة كما ذوى فى حياتها ، وارتسمت فى مخيلتها ليلة الروع التى أجبرت فيها زوجها المريض السكران العاجز على وصالها ، لتلد هذا الكائن البشع الذى لايكاد يكون انسانا ..!

ولم يعد فى أهل الحى عندما بلغ « يولا » عامه العاشر من يشك فى أنه .. قزم !

المنكمشة حياته المستوحدة الشجاعة ، فلقد غدا دميما منفرا ، مضحكا ..

وصار الليل كل مساء يراه ساعيا الى الحانة كى يعود بأبيه ، بينما تنطلق امه الى الشوارع وقد أشرعت قبعتها ذات الازهار واتخذت للرصيف زينتها .. ويدخل القزم الحانة فتحدث لحظة سكون عجيبة ، ثم تنفجر من بعض الموائد ضحكات ، ويمشى « يولا » على استحياء الى

مائدة ابيه الثمل ، ولكن احد السكارى يحلو له أن يتناوله بيده ويرفعه الى السقف فى مسقط النور ثم يضعه على المائدة أمامه كما يوضع الشيء ... وعندما تجلجل الدعابات والبذاءات ينهض الاب على ساقه الخشبية ويصرع المعتدى المترنح بلكمة تلقيه تحت المائدة ، ثم يتناول « شيئه » الزرى الخارج من صلبه فيعيده الى الارض ، ويضع يده على رأسه يتوكأ عليها كأنها العكاز ، ويمضى به خلال السكون العميق ..

وعلى باب الحانة يتعثر الاعرج السكران ويسقط ، فيجلس الشيء الصغير الى جانب ابيه على الرصيف تحت نجوم السماء حتى يسترد أنفاسه الثملة ، ثم يمشى معه الى الغابة ..

ويظل الاب والابن يستمعان الى تنفس الاشجار فى الليل وهناك يقول لشيئه الصغير :

ـ اعلم يابنى أنه فى الشقاء لن ينحنى على جراحك غيرك .. الآخرون يكبرون وأنت لا تنمو .. وهم يلعبون وأنت تفكر ! ..

وامتدت يدا الاب المرتجفتان الى ساقى ولده ولاطفهما فى رقة ، الواحدة بعد الاخرى :

ـ سأقول لك ياولدى مالم يقله لك حتى اليوم احد .. انت قزم .. قزم .. فاعلم هذا وواجه الحياة وانت تعلمه .. واياك ان يخيل اليك الوهم ان فى وسعك ان تعيش مع الآخرين ، أو أن النساء يسعهن أن يحببنك .. لقد كتبت عليك الوحدة .. وانه لأمر بالغ القسوة ، لكن حذار ان يسمع الاخرون أنينك .. فى عزم الابطال يحمل مثلك مصيره .. وليس يسعك الا أن تتعلم الفن الاعلى ، فن الاحتمال ..!

ورفع الشيخ طرف بنطلونه فى حذر شديد عن ساقه :

ـ اليك فانظر يا ولدى نصيب ابيك من هذا الفن العظيم ، فن المساكين ..

وعندما أشاح « يولا » بوجهه سأله أبوه :

ـ أخائف أنت ؟ ..

ـ لا !..

وتقلصت قبضتاه ونظر .. وكان الاعرج قد فك الاربطة عن طرف

ساقه المبتورة ، فرأى القزم شلوه البشع ، كتلة لحم عارية على العشب ، وجاشت نفسه وتقلصت أمعاؤه ، ولكنه أرغم نفسه على النظر الى قطعة اللحم الشنيعة الملتهبة الضاربة الى الزرقة وقد انتشر فوق ثنياتها القشر والقيح فصارت شيئا مفزعا محزنا ، وانحنى الرجل على تلك البضعة من لحمه التى كانت تموت وهى معلقة بجسده ، وهمس يكمل وصيته لابنه :

ـ أسمعتنى أرسل الشكوى أنينا ؟ أسمعنى أحد من الناس ؟ ٠٠ هذه ساقى تلتهمها الاكلة ، وتنتشر فى بدنى كله الحمى والالم الذى لا يطاق ، لكنى لا أدع أحدا يتفرج على عذابى ، لان على الانسان فى هذه الدنيا أن يحمل عذابه معه طيلة حياته دون أن ينطق بكلمة واحدة تهتك ستره أو تشى بضعفه ٠٠ هذا هو الفن الاعلى !

وبعد أيام مات الشيخ المسكين وسط آلام مروعة ، فحركت بلوى القزم ينابيع الحنان فى أنوثة العانس وراحت تكشف للقسيس عن حياة البؤس والعار التى يتنفس جوها قزمها الحبيب ، منذ صارت أمه تعود الى البيت كل مساء بضيف جديد ٠٠ والقسيس أرسل من فوره زائرة اجتماعية كان كل ما أهدته « للشىء » المسكين من عونها أن أخذته بعد أن غسلته لتعرضه على أساتذة مستشفى البلدية ٠٠

وهناك جعل السادة العلماء يفحصونه كما يفحص الحيوان الغريب النادر ويقلبونه بين أيديهم ٠٠ وعانى وطأة هذه الايدى الغريبة الفضولية التى تجسه وتمر على جلده وتغوص فى لحمه ٠٠ ولم تذرف عينه دمعة واحدة وهم يحملونه الى قاعة الجراحة والآلات المقلقة البراقة ، فى ذلك الجو المشبع بالاثير والكلوروفورم ، حيث تحتشد المعاطف البيضاء والرءوس الصلعاء واللحى والايدى والانفاس المترددة على بدنه ، وتلك المصطلحات الملغزة التى كانت تلقى فى صوت خافت ٠٠ أو تلك القاعة الاخرى ، مدرج طلبة العلم ، حيث رفعوه على منضدة وأحاطت به العيون بينما كانت احدى اللحى تعرضه وتمزق حياءه وتدعو من يشاء الى الاقتراب من الاعجوبة وتسجيل المذكرات !٠٠ كل هذا تحمله وعاناه وهو يفكر فى وصية أبيه ، بل انه لم يبك حتى عندما قيل له آخر الامر ان سر بلواه فى غدده وان الطب لا يملك له نفعا ٠٠ !

الى أن كان ذلك المساء من أحد أيام الصيف الاخيرة عندما أراد أن يندمج فى الغابة مع فتية الكشافة وفتياتها الذين انطلقوا بعد الرقص والغناء لجمع الحطب لايقاد نار ، فانبرى « يولا » يجمع كما يفعلون الحطب وفى أعماقه المسكينة همس هاتف خادع :

ـ نعم ، لنجمع حطبا ! كلنا معا ! ...

وثوب أزرق غير بعيد منه ، ثوب البنت « رينى » عازفة القيثار منذ قليل ، ورغبة فى نفسه أن يكلمها فتبتسم له !

رفع اليها وجهه :

ـ تعالى ! .. ان عندى لك حطبا !

ونظرت البنية وأجفلت ، فقال وهو يخطو اليها على مهل :

ـ عندى هنا حطب جمعته .. جمعته لك ..

فتلقى الرد صيحة فزع رأى فيها صـــورته كما لو كان ذلك فى مرآه :

ـ أنت تخيفنى ! ..

وولت منه فى رعب ، وارتعد فوق هامات الشجر شعاع من القمر ..

وعادت الجماعة الزائطة آخر الامر فى طريقها الى المدينـــة ، ومرت من أمامه أيد مشتبكة وأعطاف مترنحة على نغمات ينفثها فى النـــادى زامر ، فمنهم من أطال اليه النظر ، وآخرون من الاشفاق أشـــاحوا بأبصارهم ، فى رحمة جارحة ... وكانت ذات الثوب الازرق تمشى فى آخر الموكب ، فلما مرت به منحته ابتسامة رقيقة ، فى نظرة تشى بالخجـــل ، كما لو كانت تنشد عنده المغفرة .. وأشـــعلت النظرة الرحيمة فى قلبه فرحا عارما ، فتحركت قدماه فى طريق الجمـــاعة وتبع الموكب عن كثب وراء النغم ..

فلما أوشكوا أن يبلغوا بوابة « أوبرج بترمان » رأى « يولا » ذراع الولد الذى يمشى جانب الثـــوب الازرق وهى تمتد فتطوق البنت ، ورأى الجميلة فى سيرها تميل الى صاحبها بعض الميل وتمنحه رضاها واطمئنانها وثقتها .. ثم اقتحم الغزاة الصغار فناء الفندق ، وانتظمت القزم تلك السحابة المثيرة من المرح والحـــرارة والخفة ، وفى موكب السعداء تجلى هو فى فناء الملهى الكبير .. وكانت هناك ضجة حيـاة الليل والفرقة الموسيقية تعزف نغما عاليا ، فتلطف قائدها وأشـــار

الى العازفين أن يتموا النغمة التى كان يغنيها الشباب ، ومن كل الموائد ارتفع الغناء ، وفى ظل الثوب الازرق وحمـــاه ارتفع صوت « يولا » الذى أنسته نشوة الجماعة وصية أبيه ...

ولم يكن هناك من يلحظه .. كان فى ذروة الهناء !

وظفر كل صبى وصبية من هدايا المكان بمشعل تقلبـــدى ، حتى « يولا » نال مشعله .. ونشرت المشاعل فى الليل ألوان اللهب العديدة حمراء وزرقاء وخضراء راقصة ، وجعل الضوء الازرق يســقط من مشعل القزم فيلون يديه .. وللنار فتنة ، فطافوا بالساحة مرفوعة مشاعلهم بأيديهم ، كأن طابورهم ثعبان مبرقش براق ينساب متلويا بين الموائد .. وبحثت كل يد صغيرة عن يد تطمئن اليها ، فسقطت يد « رينى » الناعمة فى قبضته !

لكنها لما نظرت وعرفته تمثل رعبها فى صرخة عالية أطلقتها :

ــ اليك عنى ولا تلمسنى ! ..

فلما تركيدها منكسرا نهرته مرة أخرى :

ــ اذهب ، انك تملؤنى رعبا ! ..

وتلفت بعض أصحابها ، وتحطم اللحن على أكثر من شفة ، والتف الثعبان الادامى حول باكية تنتفض رعبا ، واهتزت المشاعل من كل صوب .. وجمد القزم فى مكانه وغص حلقه بلعابه وغاصت عيناه .. واحس أن كل شيء من حوله ينساب ويتراجع ويغدو فراغا ..

منذ هنيهة كانت الجماعة تحمله وتحميه وتملأ قلبه دفئا ،وفجأة وجد نفسه كما كان دائما وحيدا ومنبوذا وسط الحلقة التى لفظته ، وهدفا لما تنفثه العيون الشاخصة من الفزع أو الرثاء .. وحـــده ، والناس ينظرون ويعجبون .. وفى يمناه مشعله يلقى على وجهـــه الشائه ومضاته الزرقاء ! ..

نصف دقيقة من الصمت والروع ، عمر كامل .. وعلى الصـــمت الرهيب ارتفعت همهمة دهشة ورثاء واستفظاع ، ثم علا صوت يقول:

ــ حسنا ! ليس لك هنا مكان ، فامض لشأنك ، ولك أن تأخـذ معك مشعلك ! ..

ـ ٢ ـ

ـ سيداتى وسادتى !.. اليكم أصغر قزم فى العالم ، عمره ثلاثون سنة ، وطولة خمسة وثمانون سنتيمترا ، وعندما يصير عمره خمسا وثمانين سنة ، سيكون طوله قد تناقص على مر السنين الى ثلاثين سنتيمترا !!.. هلموا لتستمتعوا بمشاهدته راقصا ومغنيا وعارضا ألعابه الخطيرة الرائعة ، وليتحدث اليكم باللغات السبع التى يجيدها .. انه اعجوبة الزمان ، وله اثنا عشر ولدا يعز علينا ألا تتمكنوا من رؤيتهم .. سيداتى وسادتى ، فما الى رؤيتهم من سبيل بدون الميكروسكوب !!..

ويرن صوت النفير أمام « مسرح العجائب » وتمتد يد قوية فترفع « يولا » وتضعه فى غير رفق على المنصة العالية ، لكى يتاح لمئات العيون القاسية أن تتأمله وتفحص شقوته .. ثم يتدافع الى قاعة العرض الزرية الضيقة جمهور يستبد به الفضول ، ولا تلبث دقات الطبول ان ترتفع ويبدأ العرض ويبزغ « يولا » فى قميصه الاحمر وسرواله الحريرى الاسود من وراء الستار ـ كالحلم السىء ـ ويحيى الجمهور بسبع « لغات » ما أنزل الله بها حرفا ،منها خمس مكونة من بضع كلمات من اللغة التشيكية لقنه اياها منادى الفرقة ! .. ثم يغنى ويرقص ويقفز فى الهواء قفزات حلزونية خطيرة من ذلك النوع الذى يحبس له الجمهور أنفاسه على قرع الطبول .. وينحنى مرة اخرى قبل ان يترك لغيره من زملائه خشبة المسرح ، ويخرج الى المنصة الخارجية ليعاد عرضه على الناس .. وتمر الساعات بين منصة العرض وخشبة المسرح قاسية وبطيئة ، فاذا انتهت المحنة اليومية خرج ليجلس وحيدا فى رحبة الملعب وهو يئن أنين الحيوان المغلوب على أمره .. هو رفيق القرد والتمساح والثعبان وكل صامت من الخلق يسعى الجمهور للتفرج عليه ..

وبالليل ينام مع تلك المخلوقات التى يعرضها « مسرح العجائب »

مثل نومها الخانق الثقيل ، هو الذى يكسب عيشه كما تكسب قوتها بجهد البدن وهوان الروح ، وبالحياة تبذل بغير أمل ، وبغير فرح ...

وما كان أعجب رفاقه فى معرض العجائب !..

منهم الاسد فى قفصه ومنهم تمساح عجوز وثعبان بليد .. وهناك أيضا « ليونيلا » التى تدخل فى جلد لبؤة لتظهر على المسرح زاعمة انها « المرأة التى نصفها بشر ونصفها لبؤة » .. والمنادى المرح « جان بتركا » الذى يجيد اقتناص الزبائن ونثر الدعابات ، وهو فتى قوى جميل ذكى منحته الطبيعة كل ما حرمت منه زميله القزم ، وكان يزعم أن أمه كانت من حسان تشيكوسلوفاكيا وانه لا يعرف من يكون أبوه ، لولا أن الناس يزعمون أن « مودنساك » صاحب مسرح العجائب هو الذى أولد الام مناديا لفرقته ، يوم كانت تقوم بدور « المرأة اللبؤة » قبل ان تحتل مكانها « ليونيلا » الجديدة .. و « ليونيلا » هذه امرأة تدعى فى حياتها الخاصة باسمها الحقيقى « آنا » وهى فى آخر الشباب تكاد تبلغ عامها الاربعين ، شقية شقاء عميقا ، فهى تكره مهنتها وتنقم على قدرها وتحلم فى الليالى بأطفال ثلاثة ، بنت وولدين وتنام فى أحضان « مودنساك » كارهة لانها منذ زمن بعيد لم تعد تحبه .!.

وعندما يقبل الفجر على ساحة الملعب يكون التمساح نائما يحلم بشبابه البعيد والنهر القديم فى أرض سوداء ، ويكون الافعوان نائما فى صندوقه الزجاجى يحلم بما شرب على عهد الحرية فى غابة مجهولة بعيدة من دم الغزلان ، وتكون « ليونيلا » قد نامت بعد ان لعبت على المسرح دور المرأة التى نصفها بشر ونصفها لبؤة عشر مرات ، فهى فى نومها باكية القلب عاصية الجسد كما هى فى يقظتها ، ويكون « جان » قد نام بعد ان ملأ الدنيا ضجيجا وأخذ يحلم بحب عظيم يملأ حياته .. لكن الفجر عندما يقبل على عالم السيرك فيجده كله نائما يشهد يقظة شىء ضئيل كان يدعى « يولا » فأصبح اسمه « المسرحى » الجديد : « الامير كوليبرى عجيبة العجائب » ! .. انه ساهر يبكى فى ضوء القمر فيمتزج أنينه بزئير الاسد فى قفصه وغطيط التمساح فى حوضه وفحيح الافعوان فى مرقده البلورى .. وتجيش فى نفسه ذكريات

الشارع القديم وصديقته العانس ، وصدفتها الخرساء ، وتلك الليلة العجيبة التى ودع فيها بيت امه وصعد بعد منتصف الليل الى ساكنة الدور الاول ودق بابها ليودعها هى الاخرى ..

وفى تلك الليلة ترددت العانس الوحيدة وراء الباب قبل ان تفتحه على حذر لتجد صديقها الضئيل وفى عينيه غشاوة من دموع وهو يرمقها فى صمت حزين ، فدعته الى الدخول لكنه همس فى صوت تخنقه العبرات « وداعا ! » وانثنى من فوره يهبط السلم .. ونادته مشفقة من حزنه وانكساره ، فكان رده حركة دفاع صغيرة ذليلة من يده ، فما كان منها الا أن وضعت شمعتها وهبطت فى اثره بقميص نومها ، فلما أدركته انحنت دون أن تلفظ كلمة وتناولته فى ذراعيها وحملته صاعدة به .. وكيف ينسى أنها وضعته على فراشها وجلست الى جانبه لاهثة بأنفاسها وقد استيقظت فى أعماق روحها الصدئة عاطفة مكنونة ، وأثله على وسادتها تساقطت أحزانه دموعا !.. ولاطفت شعره وهى تستوضحه سر كآبته فظل مصرا على صمته الكبير ، واستشعرت الخوف فجأة عندما طوقها بذراعيه الطويلتين واسند رأسه الى قميصها ، فوق صدرها الذى لم تلمسه أنملة رجل .. وتأملت المسخ الراقد فى سريرها وبدا لها أنها تعيش فى حلم ملتاث لا تفسير لمقاييسه المضطربة .. ومن جسمها البكر ولدت لساعتها أم تنحنى فى حنان على هذا المخلوق الصغير المستضعف الشاذ وتهدهده بين ذراعيها وتسقيه رحمتها ..

وماذا كان قادرا على ان يقول لها ؟..

أيقول لها ان اخوته فى الانسانية مرغوا كرامته فى الوحل ومزقوا حياءه ، هم الماضغون للاعاجيب والخوارق ؟

أيقول لها ان الناس أوتوا نظرات كأنها النصال ، حتى ليشتهى فى كل لقاء مع كل انسان وتحت كل نظرة جحر فأر يلوذ به ؟! ..

لقد سكت الا عن البكاء وطال اعتناقهما الصامت الغريب ، العانس والقزم .. فلما انطفأت شمعتها كان ضيفها الصامت قد استنفد الكثير من حزنه فى الدموع ، ثم أضاء نافذتها نور الفجر فأيقظت ضيفها من غفوته ، وفتح عينيه وأجال فيهما بصره ثم قفز الى الارض حيوانا صامتا مستهيم الروح .. وسوى بيده شعره وثيابه وكل شخصه

الصغير ، ومشى مطرقا الى الباب وهناك جذب اليه يدها وطبع عليها قبلة أودعها حمده وعرفانه .. وخرج الى الشارع ، الى المجهول ، الى التشرد ، ثم الى عربات ثلاث تجول بين البلاد حاملة انسانها وحيوانها ، الى ذل وفوضى وأنوار وظلمات ، والى مناد ينادى فى الناس أن هلموا هلموا فهذا « الشيء » فريد العصر والاوان ..

***

وتجيء ليلة فى حجرة « ليونيلا » الضيقة بعربة الملعب ، ونصفها الاعلى عار يلمع بياضه المكتنز فى نور المصباح ، وسائر جسدها من خصرها الى قدميها سجين فى فراء ثقيل محبوك هو جلد اللبؤة الذى تظهر به كل ليلة بعد ان تدخل فيه وهى عارية ثم يحبكه حول جسمها نظام معقد من الازرار المستورة والاربطة الخفية .. ولم يكن حرص صاحب السيرك على أن يتولى بنفسه كل ليلة اخراج جسدها العارى من هذا الفراء راجعا الى غيرته عليها ، بل لان يدا غير خبيرة بالازرار والاربطة قد تصيب الفراء الثمين بضرر يعز اصلاحه .. وكان ينهاها عن ان تدعو « جان » المنادى لمعاونتها اذا غاب هو فى تلك اللحظة ويوصيها ان يكون القزم فى تلك الحالة وصيفا لها ..

ولكنها فى هذه الليلة ذات الانسام العطرة شاقها أن تكون العين التى تقع على عريها هى عين الشاب القوى الجميل الذى يعلم انها به مولعة ثم يروح يدير عينيه بعيدا عنها فى البنات الصغيرات .. وكان «جان» قد لبى نداءها ، ولكنه لم يكد يساعدها فى نزع النصف الاعلى من جلدها المصنوع الذى لا يزال ينفث رائحة حيوان الغابة حتى دفعته قسوته الباغية عليها الى أن ينصرف عن المرأة نصف العارية التى تتوسل اليه نظراتها .. ودفعه روح العبث ــ وهو يمر بحجرة القزم ــ الى ان يناديه ويقول له ان « ليونيلا » تدعوه لمساعدتها فى خلع ثوب اللبؤة .. وكان القزم يحب صاحبه هذا حب المسخ للكمال ، حبا مستورا ، غيورا ، عذبا ومرا ، وما كان يعصى له أمرا ، فانطلق من فوره الى حيث أمره صوت صاحبه .. ولم يكد يرفع الستر بيده حتى وقف فى مكانه مصعوقا أمام العرى الناصع الذى تبدى له ، ولمحته المرأة الثائرة نصف انسانة ولبؤة ــ فصرخت فى وجهه وهى تنفض شعرها :



ولــــكنها فى هذه
الليلة ذات الانسام
العطرة شاقها أن
تكون العين التى تقع
عليها هى عين الشاب
القوى الجميـــــل

ـ ماذا تفعل هنا ، أنت ! . .

قال وهو يشيح ببصره فى ارتباك وخذلان !

ـ أرسلنى « جان » . . قال لى انك فى حاجة الى ! . .

وساد الصمت والمرأة المطعونة فى كبريائها ترنو الى المسخ وقد تحطم شىء ما فى قالبها ، وما كان فى هذا القلب من الشر طفا على السطح ونزا فى المعين . .

كانت لحظة غريبة أحس فيها هذان المخلوقان التعسان أن صاحبهما قد سخر منهما كليهما وأذل نفسيهما ، وان هذه المذلة قد وحدت بؤسهما الروحى . . فهزت المرأة كتفيها وهى تطلق ضحكة صفراء مريضة :

ـ حسنا !. . تعال ، ما دام صاحبك لا يريد ! . .

وارتجفت ركبتاه وهو يدنو ، وزاغ بصره وهو يمد يده الى جلد اللبؤة ويعالج الازرار فى رفق وحرص وانفعال . . ودارت برأسه رائحة الجلد الحيوانى ممتزجة برائحة الانثى . . وذكر ، لا يدرى لماذا، أمه واصحابها . . وسألته «ليونيلا» دون ان تلتفت اليه عن عمره. فأجابها دون ان يرفع بصره عن يديه المرتعدتين فوق فرائها . . ثمانية عشر عاما . . فقالت بسرعة : « السن الخطرة ! » . . ومن رأسه الى قدميه كان ينتفض عندما تم تجردها من ثوبها الفريب . . ولم يعد يفهم جسمه فخر امامها فى هوان النفس جاثيا . . واختنق صوته فى حنجرته المتقلصة . . وجن جنونها امام هذه المذلة التى لم تطقها وتناولته من كتفيه وجعلت تهزه بين يديها :

ثم رفعت عنه قبضتها وخطت فوقه بساقيها ، وفى صيحة يائسة

ـ تعسا لك !. . اذهب !. . اليك أنت الاخر عنى !. .

ركلته فجأة ، فزحف الى الباب فى صمت واختفى . .

***

وجاء الليل على الطريق والعربات الثلاث تمضى فى نور القمر الشاحب نحو بلدة هاجعة عند الافق البعيد . . .

بوكان يقود طليعة القافلة « جان » المنادى وقد تربع الى جانبه صاحبه الضئيل وهو يسحر بحديثه عن مستقبل مشترك باهر لهما ، بعد ان يتركا هذا السيرك المتواضع الى فرقة كبيرة من طراز

فرقة « السيرك الابيض » ..

ودخلت القافلة البلدة فاذا بها البلدة التى شهدت مولد القـــزم ، بلدة العانس الصديقة التى ودعها منذ عام لينطلق محموم الضمير الى ضباب المجهول ·· وها هى ذى لم تكد تسمع ان « مسرح العجائب » قد حل ببلدتها واتخذ له ساحة امام ساحة « السيرك الابيض » حتى نسيت تزمتها وتوقرها وهرعت لتختلس من صديقها القديم العزيز ـ ولو من بعيد ـ نظرة !

وقفت المرأة برهة بباب «السيرك الابيض» فرأت على منصةالعرض الخارجية ماردا زنجيا عاريا الى خصره وهو يحمل فوق ذراعه القوية مخلوقا صغيرا غريبا مؤنث الجنس فى ثوب للرقص من الحرير الوردى .. وكانوا يزعقون له فى النفير : « تعالوا تفرجوا على بوتى بيكولا اجمل بنت صغيرة فى العالم » !.. ثم وقع بصر العانس فى الجانب الاخر على اعلان شاعت فيه الوان قوس قزح : « الامير كوليبرى ... أصغر قزم فى العالم » فاقتربت من منصة العرض المنصوبة امام « مسرح العجائب » واخترقت حشود الفضوليين الى الصف الاول .. وهناك رأته !

ووقفت مرتجفة الاوصال واجفة القلب تنتظر أن تقـــع عليها عين قزمها الحبيب ـ وتمنت لو حظيت منه ـ عند ذاك ـ بابتسامة او ايماءة ، ولكنه عندما رآها ـ وعرفها حتما ـ مر عليها بصره كما لـو كان يعبر فضاء خاليا لا يعنيه ، وتلوى فى الهواء قافزا قفزته الاخيرة الخطيرة قبل أن يزيح الستار الصغير بيده وينسل الى الداخل ·· واحست كأن يداً قد هوت على خدها الضامر بصفعة !

وترددت هنيهة أمام شباك التذاكر ثم اشترت واحدة فى الصف الاول ودخلت لتتلقى صفعتها الثانية ..

فلما أوت اخر الليل الى مخدعها تناولت الصدفة الخرساءواودعتها صندوقا وكتبت عليه عنوان قزمها النافر القاسى ، وكتبت على رقعة صغيرة :

أما زلت تذكرها يا « يولا ؟ »

وكانت « ليونيلا » هى التى استلمت من ساعى البريد صندوق الصدفة ، فطال عجبها ان يكون للقزم ـ حتى القزم ـ صاحبة تجود

عليه بالعطف وتبعث اليه بالهدايا ، على حين تحرمها الحياة ــ هى الانثى الكاملة الظامئة ــ كل عاطفة يشوقها أن تنعم بها .. ونادت القزم من نافذتها :

ــ « يولا » ! .. قد بعثت اليك حبيبتك بهدية ! ..

وشاع نور من الغبطة فى وجهه عندما خرجت الصدفة من الصندوق، ولم يعد يصغى الى عذر زميلته ولغوها الساخر ، وارتفعت يمينه بالصدفة الى أذنه ، وكان يعلم علم اليقين انها خرساء لا تبين ، ومع ذلك أصغى طويلا الى صمتها ، وود لو كان فى مقدوره حقا أن يغوص بفكره وراء المعنى الاخرس المبهم الكامن فى قلبها ، وأن لو وسعها أن تهمس وتحكى له حكايتها ..

وسهر وحيدا وهو يتمشى فى دنيا السيرك الهاجعة حتى مر بركن الثعبان الضخم البليد فوجده يلفظ أنفاسه الاخيرة على الارض الى جوار بيته البلورى .. هو ذا أخ مسكين ينعتق من هذه المهزلة ! ..

وأقعى وحنا على الخليقة المحتضرة حنو الاخ على أخيه :

ــ ليت لك لسانا فتشكو لى ! ..

والافعوان يرنو فى غمرة النزع الى هذا الاخ الكريم ، وكأن فى عينيه الخاملتين السأمانتين حديثا عجبا .. لكأن الافعوان يقول : «انى أتألم يا أخى ! .. ابحث عن وطنى وعن ليالى الغابة وفحيح اخوتى فى مساربها .. آه لو كنت تتكلم لغتى !.. اذن لاحسست آلامى ولحدثتك عن مسرات شبابى البعيد .. ماذا تعرف عنى وماذا أعرف عنك ؟ .. أتعرف طعم دم الغزلان الصغيرة ؟.. أسمعت الزمجرة التى تصحب غرام الوحوش الكبيرة فى ظلمة الليل فى الغابة العذراء ؟ .. أنت مثلى مع ذلك ، وحيد ومسكين ولا صوت لك ! .. ويوم تموت أنت لن تجد من يبكى لموتك ، فأنا أسعد منك اذن حظا ، لانى وجدت فى عينيك الرحمة قبل الوداع ... »

ولما مات الثعبان كانت رأسه مسندة فى رفق الى صدر أخيه القزم .. !

– ٣ –

– هل يأذن لى السيد ان أشعل من سيجارته سيجارتى ؟ ..

وكان الليل مطيرا ، وكان الصوت لرجل طويل نحيل لم يدرك القزم وهو يسير فى الظلام واضعا سيجارته المبتلة المشتعلة بين شفتيه المزمومتين انه كان يتحين الفرصة لمخاطبته ..

وانحنى الكهل ليبلغ بسيجارته يد القزم ، لكنه لم يمض بعدها لشأنه بل اتأد فى خطوه ليمشى مع القزم جنبا لجنب ، فى الليل الغريب الذى ألف أن يشهد كل غريب .. !

وكان الكهل النحيل كاتبا كبيرا بدأ فى العهد الاخير يشعر وهو يكتب بأن أصابعه فريسة نوع من التيبس المخيف ، وكان هذا الشلل العصبى يتفق فى أحيان كثيرة اتفاقا مؤلما مع جمود الذهن ونضوب الفكرة . !

وفى مساء ذلك اليوم من أيام الخريف كان قد ألقى بقلمه من يده ونهض عن مكتبه تاركا الصفحة المكتوبة الى منتصفها ، بعد ان انفق أمامها ساعات طويلة دون ان يوفق الى اتمامها ، ورفع يديه الطويلتين وعرض أنامله للضوء امام مصباح مكتبه وهو يطويها ويبسطها ، ثم اخذ يذرع حجرة مكتبه الواسعة كأنه يبحث عبثا عن مقدرته المألوفة على التركيز والابداع .. وعاد يلقى على سطوره المبتورة نظرة حائرة يشوبها العداء .. لقد كان انتاجه دائما جهدا مضنيا وولادة عسرة وحمى من قلق ومحنة من عذاب ، ومخلوقات تصرخ ليل نهار مطالبة بحقها فى الحياة والتجسد ، بل فى الكمال ، وها هو ذا يعانى الآن محنة جديدة ، فهذا هو الفشل الكامل الذى ينفث اليأس ، ووراء النافذة أيضا عالم من الخريف ، وأشجار كانت فى الربيع حية مورقة وهى اليوم تميل مع الريح جاهدة هى الاخرى أن تحتفظ بأوراقها الاخيرة

كان فنانا مخلصا لكنه كانسان كان طبعه قد أقام بينه وبين الناس جدارا من زجاج ان لم يحجب الرؤية فقد حجب المودة والالفة . . وعادت

خواطره تحوم حول المشهد الذى وقف عنده قلمه العاصى . كان يكتب قصة تمثيلية ، ملهاة تتوثب الكلمات والشخصيات فى حوارها ومشاهدها كما تثب كرات المطاط ، وكانت وقائع التمثيلية تدور فى بلاط خيالى وتصور حياة مهرج البلاط وتعرض أفكاره ، وحكايته كلها ، ذلك المسخ الحكيم الذى ترتسم المرارة فى بسمته وتقطر التجربة من كلمتـــه .. وأحس أن أبطال قصصه الذين عشقهم آلاف القراء تأبى فى كبرياء الاصالة أن تضم فى زمرتها هذا المخلوق الجديد الذى خرج الى الحياة من أصابع تيبست وذهن جمد وفكر لا ينبض ! .. ان مسخه المهرج لا يزال مائعا مبهما ، ولا يزال كل ما يقوله فاترا فارغا ، ذلك الجنين الذى لا يريد بعد أن يشبه اخوته !

وطوى أوراقه واطفأ مصباحه وهبط الى الطابق الاول من بيتـــه فعلم ان زوجته قد خرجت مع اصدقائها لقضاء السهرة فى المسرح وانها ستعود بهم لتناول العشاء فى آخر الليل على مائدتهما ، وكانت طفلته «مارجو» قد نامت منذ ساعات ، فجعل دون هدف يطـــوف بأركان بيته حتى بلغ مخدع زوجته « مارلين » حيث تنفس عطرها الذى يغمر اشياءها ، ثم مشى بطيئا الى الردهة فتناول قبعته وارتدى معطفه ورفع ياقته فستر بها عنقه وخرج الى الليل ..

***

وتلقاه الليل واحتواه حتى بلغ به الحى القديم من المدينة الصغيرة، كنيسة وبعد الكنيسة مقبرة ، ثم مسافة فى الظلمة ، ثم سمع ضجـة السيرك فأخذته هزة من فرح صبيانى ودخل مع الداخلين وشملتـــه تلك البهجة العنيفة التى تملك الروح والبدن فى زحام النـــــاس .. وتتابعت مشاهد العرض بحيواناتها ولاعبيها ، فى الساحة المستديرة وفى القبة العالية ، وحمى وطيس الموسيقى العصبية ، ثم برز الى الساحة تحت الاضواء لاعبان أحدهما طويل ممشوق متهلل الاسارير والآخر قزم مشوه جاد كأن وجهه لا يعرف الابتسام .. ولم تدع حماسة الجمهور فى استقبالهما مجالا للريب فى مواهبهما .. وكان فى نظـــرة القزم معنى عجيب من معانى الرصانة لم يلبث ان لفت غريزة الكاتب، كما لو كان فى ذلك الشىء الانسانى الممسوخ سر عجز معه الشاب القوى الجميل البارع عن انتزاع نصيبه من عاصفة الاعجاب التى نالهــا زميله القزم .. ثم أحس الكاتب عندما اوشك العرض المشترك على

الانتهاء ان ذلك المخلوق الصغير الشاذ يحمل على جبينه ميسم العزلة الروحية ويمكنه أن يفرض سيطرته الايحائية على رواد السيرك ،ومع ذلك فانه قد تضاءل عامدا وتخاذل راضيا كى يدع لزميله فى اللعبة نشوة الفوز وحده بمجد اللعبة الاخيرة !

معنى نبيل غريب هز نفس الكاتب الحساسة فى هذا العالم الذى يقوم على القوة البدنية وترويضها ، وفى هذه الليلة التى خذلته عندها عبقريته ..

لقد شهد انتصارا صامتا عظيما لارادة انسانية ، أى لقوة فكرية خالصة .. لقد شاء هذا القزم النكرة أن يدع الناس فى النهاية ينفضون من حوله ليحيوا زميله صاحب الحركة الاخيرة المفردة البارعة ! ..

ولم يكد الكاتب يأخذ فى طريق العودة حتى أحس حمى الابداع المباركة تسارع اليه من مكمنها الذى لاذت به فى العهد الاخير .. وفى ذهنه ــ الذى صفا ــ تحددت وتوضحت مشاهد كاملة من مسرحيته.. وتجلت له صورة مهرجه المنشود «بريبون» فى أدق معالمها وملامحها ، فهو مسخ يعيش فى البلاط حقا ولكنه يحيا فى عزلة الروح وله أفكاره الحميمة المكتومة . . وعندما لمح قزم السيرك يمشى أمامه تحت المطر تقدم منه وأشعل سيجارته ثم لاطفه فى حديث بسيط ومريح .. قال انه معجب به وبقدرته على ترويض جسمه ، وعندما شعر بعد قليل انه قد ملك على الكائن الصغير العصبى الصموت نفسه وعقله ، قال له فى لهجة مفعمة بالاحترام :

ــ لقد كان للممثل التراجيدى العظيم « كلمار » الذى مات فى السنة الماضية رأس قريب الشبه من رأسك ، ولن يدهشنى أن أعلم انك تهب أوقات فراغك من عملك البدني الشاق لدراسة الفلسفة أو التصوف ، وما أشك فى أن غرفتك الخاصة مليئة بالكتب .. انى كاتب واسمى سترونزى .. لعلك قرأت لى شيئا ؟

ــ لا ! ..

ــ حسن ! .. أن هذا يدخل الطمأنينة على قلبى ! .. عهدت الناس يخشون جانب المرء اذا كانت صناعته أن يكتب الكتب ... وهو منذ اللحظة التى يعرفه فيها الناس يفقد الامل فى ان ينغمر فى كتلتهم الدافئة ، اذ تتكون حوله قبه من زجاج بارد غير منظور

... دائرة مرنة يبتعد عنها الاخرون ، ثم لا يلبث ان يجـــــــد نفسه وحيدا ..

وهذه اللفتة البارعة مست من نفس القزم أدق أوتارها الخفية ، فكانت هى التى اطلقت لسانه :

ـ أجل ، يضعونك فوق منصة وينفخون حـــــولك فى النفير ! وعندها حدث الكاتب نفسه :

« يا لها من عبارة جميــلة جـديرة بأن أسـجلها ! .. انه الان سيتكلم .. »

والحق أن نفس القزم المغلقة الصلبة تفتحت لهذا الرجل الغريب الذى ترن نبرات صوته الرقيقة بالالفة ..

قال أن اسمه « بولا » وأخذ يصور حياته فى السيرك ويتـكلم عن زميله « جان » الجميل المحبوس وعن « ليونيلا » التى انتهى بها يأسها من عاطفة كريمة تملأ حياتها الى الانتحار ، فشنقت نفسها فى حجرتها بعربة السيرك ..

وهما يمشيان اشتد المطر فعرض الكاتب على صديقه الجـديد الفريب أن يدخلا حانة يحتسيان فى دفئها قنينة نبيذ ، لكن «بولا» رفض الفكرة ــ فى صراحة أدهشته هو نفسه ــ قائلا انه لا يستطيع أن يدخل حانة ، مع انه جاوز عامه الثلاثين ، لانه لا يحتمل الاثـر الاليم الذى يحدثه دخوله .!

وعندها قال الكاتب فى عطف رقيق :

ــ نعم .. أستطيع ان أفهم هذا ..

فقال القزم لنفسه :

« أول من يفهم ..!! أول من يفهم ..!! »

وعاد الكاتب يجلو احساسهما المشترك :

ــ أستطيع أن أفهم هذا الاحساس الذى يملأ نفســك .. ندخل مجتمعا لا نسأل من فيه شيئا غير ان نشاركهم فى سلام ما ينعمـون به من طيبات السمر أو استمتاع الجماعة ، فماذا يحدث ؟ .. يلكز كل فضولى أخاه الفضولى ، واذا بنا نحس فى صمتهم ان ما كـان فى جوهم من دفء ومتاع قد ولى فرارا .. اجل !.. انى أيضـا

اعرف هذا الاحساس .. أننى اسميه الجدار الزجاجى غير المنظور ..

اعتراف كسب به رجل الفن قلب رجل الصمت ، ذلك المخلوق العجيب الذى تسيطر روحه الكاملة على بدنه المبتور الشأن ، والذى أدرك الكاتب منذ رآه انعليه أن يفوزبصداقته وثقته ويتأمل حياته ويغوص فى أعماقه لكى يصنع منه لحم بطل مسرحيته ودمه ...

وقال له قبل ان يودعه فى ذلك المساء انه يسره دائماً أن يلقاه ، وأن يستقبله ذات يوم فى بيته ليريه طفلته الحسناء ، ثم سأله أن كانت له هو الاخر أسرة ، فقال القزم انه وحيد ، دائما وحيد .!

فى تلك الليلة احس « يولا » عندما دخل فراشه أن انساناً قد كلمه لاول مرة فى حياته كما يخاطب ندا ، وكما لو كان هو رجلا كالرجال ، وكان ذلك الحديث الدافىء تحت قطرات المطر الباردة فيصلا شطر حياة القزم شطرين متميزين ، أحدهما ماض مرهق وكئيب وعسير ، والاخر مستقبل يبدو له الان خفيفا ومسحوراً ومشرقا

كان قد وجد الصديق ، ولكنه كان قد الف الصمت والانطواء واشربت روحه على مدار السنين عداوة كل احساس لا ينبع من ذات نفسه ، فجعل يدفع عن وجدانه هذا النور المتوهج على افق حياته ويتملص من رعدة هذا الاندماج الروحى الذى توحى به شخصية صديقه الكاتب ..

لكن « سترونزى » كان رجلا صبورا .. الم ينفق ستة أعوام فى كتابة مجموعة من القصص القصيرة ؟! ..

صار يلقاه ويفرض عليه صحبته ويأوى معه الى حجرته المتواضعة ويتعمقه فى الاحاديث ويكشف له عن الخصائص المشتركة فى طبيعتهما النفسية .. ولم يلبث القزم أن لمح بين الرضا والدهشة انه صار يتقن عمله على ضوءالمحبة والفهم .. وكان صديقهالجديد يفضىاليه بدخائل نفسه ويبسط بين يديه خفقات روحه، ويجد لكل معنى من معانى العاطفة والشعور والتجربة التى مرت بالقزم تفسيراً واضحاً ، واسما محددا ..

وهناك كلمة واحدة ، بين كل الكلمات ، كان « يولا » يحبهـا لانها تبدو له مليئة بالمعنى الشامل لحياته كلها ، وهذه الكلمة الكبيرة هى : « الوحدة » ....

لكن هل يظل الانسان وحيدا بعد ما يجد له شبيها روحيا يحدثه أعجب الحديث عن دينهما الواحد ، دين العزلة ؟

كان الكاتب يقول لصديقه ان الانسان يمكن أن يظل وحيدا حتى بعد أن يكون له زوجة وطفلة .. زوجة يسمع فى الليل أنفاسها قريبة من قلبه ووجهه ، لا يكرهها ولكنه يحس غربته فى أحضانها ، فان لها نفسا مستعجمة ، وهو لا يدخل تحت جلدها ولا يعيش فى خواطرها ولا يغوص فى نفسها كما تغوص السكين السـعيدة فى قلب الفاكهة المفضوح سرم .. انها دنيا قائمة بذاتها ، اذا قرع الزوج بيده المتسائلة بابها لم يكد يجد جوابا .. ومع ذلك فان عنده فى غرفة مكتبه مقعدا ضخما من جلد عريق ، قطعة أثاث عتيقة بلا روح كما يقولون ، لكنه يجد عند هذا المقعد من الراحة مالا يجده عند شريكة حياته !.. يذهب اليه ويقول له ــ أو يقول له فكره فى الحقيقة ــ أنه متعب ينشـد الراحة والسكينة .. انه حقا نعم الصديق !..

ودخل القزم بيت الكاتب وتعرف الى زوجته الجميلة فاستقبلتـه فى بساطة وظرف ، وكانت من المولعات بالطرائف والتحف والدمى ، وكان فى مخدعها دميتان كبيرتان تؤثرهما بالحب ، فجعلت ترفعـه بيديها لتجلسه بينهما ، وتطلق عند كل كلمة تلفظها شفتاه احـدى ضحكاتها العالية الرنانة ، وصار تحفة بيتها ، تعرضه على أصدقائها ، وتقلده أمامهم فى غيبته ، فاذا أقبل تلقته الجماعة المهـذبة فى أدب رقيق وافسحوا له مكانه بينهم ، وغمرته الالطاف والهـدايا ، وشـاع فى صحرائه الجليدية دفء الحنان ، فاذا شبعت « مارلين » من اللعب به هجرها وانفلت من ضجة الطابق الاول وصعد مسرعا الى صومعة الكاتب ، الى الركن الهادىء الذى يغرى من يدخله بالتفكير ، والكلام ، والمكاشفة ..

هناك كان يجد الكتب والموسيقى .. أما الكتب فقد حملته عـلى أجنحتها وراء عالمه المحدود حتى الهبت مخيلته وفتحت له أبواب عالم الفكر المسحورة ، وأما الموسيقى فقد كان الكاتب يحب ان يجلس الى البيانو فى ساعة الاصيل ليبث فى صومعته وفى أعصابه أنشـودة

لشومان او سوناته لبتهوفن ، وكان « يولا » يسمع فيحيا وينسى ويتجدد خلقا آخر ..

وكل يوم كانت نفسه تزيد غنى ورحابة وعمقا دون ان يدرك أن فى هذه التجربة مع الرقة قسوة ومع العطف فلضولا ، اذ كانت التجربة كلها صورة صادقة لما يبديه رجل الادب من الاهتمام بموضوعه ، فهو يمنحه حرارة العطف لكنه يدرسه فى الحقيقة فى برود الخالق .. وفى ضميره المكنون ، فى منطقة قد لا يعلم هو عنها شيئا ، كانت تتفزز رغبة قاهرة فى أن يجر الى المنطقة التى يسكنها هو نفسه مخلوقا قادما من أرض أخرى بعيدة ، وان يحقق فى شخص هذا المخلوق حلمه الذى لم يوفق الى تحقيقه مع اولئك الذين يعيشون فى قلبه ، الزوجة والابنة !

***

وقالت « مارلين » يوما للقزم وهى تضحك :

ــ زوجى يبدولى فى انشغاله بانجاز تمثيليته الجديدة كأمرأة توشك أن تضع حملها !

وكانا فى مخدعها ــ القزم والسيدة ــ وهو فى مكانه المألوف كأنه دمية ثالثة بين الدميتين ، لايكاد فى جموده وصمته يشبه كائنا من البشر ، وانما تتركز حياته كلها فى عينيه الناظرتين اليها ، وكأنما ينعكس جمالها على مرآة روحه ، فقال لها فجأة :

ــ انه يصنع حلما كبيرا ! ..

ــ أتحب الاحلام يا « يولا » ؟

ــ فى الحلم نعمت بأجمل ما وقع لى فى حياتى ! ..

وعندما صعد فى ذلك المساء الى صديقه وجده مشغولا بالكتابة فمشى فى هدوء الى النافذة وأطل منها على حديقة البيت ، وتريث هنيهة قبل أن يقول فى همسة :

ــ انى راحل غدا مع السيرك فى رحلة جديدة ..

وقبل ان يسمع الرد كانت فكرة جديدة قد هزت نفسه :

ــ الا ما أجمل الحياة فى بيتك وما أهنأها ..

ــ أتظن ذلك حقا ؟! ..

قالها الكاتب وقد ارتسمت على وجهه فى اقصى الحجرة ابتسامة

حزينة ، غامضة ، وفى تلك اللحظة رأى القزم فى الحديقة منظـــرا جمد له دمه فى عروقه ..

رأى زوجة صديقة بين ذراعى صديق الاسرة الرسام !

وقال الكاتب وهو يخطو نحو النافذة فى قلق :

ــ ماذا دهاك ؟! ..

والشىء الضئيل مديده فى حزم ليرد صديقه عن النافذة ، وفى توسل حائر أهاب به :

ــ لا تنظر بالله عليك !..

قالها وصورة بشعة من الحديقة منكسة على وجهه ، فوقف الكاتب فى مكانه وطاف بوجهه شحوب خفيف ، لكنه لم يسأل عن شىء ، فلقد كان يعرف يقينا ...

ورفت على شفتيه سخرية الحياة فى بسمة :

ــ قل لى يا صاحبى !.. أمازلت ترى الحياة فى بيتى جميلة ؟!

وعصرت قلب القزم قبضة عاتية ، وانقضت فترة من الصمت ..ثم اخذت أصابع الكاتب خلالها تعبث بأمشاط البيانو ، على حين وقف ضيفه المحزون الصامت يتأمل هذا الانسان الكبير الذى قال له يوما انهما قد خرجا الى الدنيا من عنصر واحد وان فى أعماق نفسيهمـــا صوتا داخليا واحدا وهو هدير العزلة ، فهما « صدفتان » شقيقتان كانت احداهما خرساء ولكنها أخذت هى الاخرى تغنى نشيدها ..!

وبعد قليل هبط الكاتب وصديقه الى الدور الارضى وهو يقول له :

ــ انك تسمع الناس يتحدثون ــ بالمعهود عنهم من المبالغة ــ عن دور المرأة فى حياة الرجل .. يقولون لك أن المرأة تسعد الرجل أو تشقيه ، وهى وحقك لاتفعل من هذا شيئا ! .. أنا أحب « مارلين » .. أحبها لانها فى حياتى شىء كدقات ساعتى فى جيبى ..هى الدقات التى تنتظم على وقعها حيـــاتى .. هى لوعتى وظمئى ومرآتى .. هى الشىء الغامض اللازم الذى نحبه ونأخذه تحت سقفنا ونعتنقه فى نومنـــا ونحن نحس فى قربه الوحدة والظمأ ..

وعندما دخلا على زوجة الكاتب وجماعتها كانت الممثلة المشـــهورة « أنييس سارتو » متربعة على السجادة ، والرسام العاشق واقفا عند

المدفأة وعينه على « مارلين » التى اتخذت مجلسها بين دميتين محتضنة طفلتها التى تحمل فى ذراعيها دمية ثالثة .. ولم تكد الممثلة تسمع نبأ رحيل القزم حتى رفعت رأسها وحدقت فى وجهه وهى تحييه بصوتها العميق الدافىء ومدت له يدها الحارة العصبية ذات الاصابع الطويلة الملوثة بآثار التبغ ، فصافحها « يولا » فى خجل وانصرف عنها الى « مارلين » يتأملها فى جلستها البريئة مع طفلتها .. وعجب لها كيف تخون زوجها بهذه البساطة المخزية ، وأحست هى وقع نظرته ، وجهدت أن تجعل عينها فى عينه وهى تسأله :

ــ ومتى تعود الينا يا صديق ؟ ..

وعندما تكلم قائلا انه سيعود فى السنة المقبلة صاحت الممثلة :

ــ ياله من صوت صالح للمسرح ! .. هذه النبرة المحطمة المقلقة !.. لاسبيل الى تقليدها !

وودع القزم بيت صديقه بعد أن دفن وجهه الباكى فى كفه وقبلها ، قبلة ظلت تعيش فى كف الكاتب كما لو كانت شيئا حيا يضطرب جناحاه فى انفعال وقلق ...

وقالت الممثلة وقد أشعلت سيجارة جديدة :

ــ انه هو من دون الناس جميعا الذى خلق ليقوم بدور « بريبون » مهرج المسرحية الحكيم

فوقعت الكلمة فى الصالون الانيق فى بحيرة من الصمت العميق ..



— ٤ —

عاد « يولا » الى عالم السيرك وعاش فى صراع مر بين دنيا الفكر التى مسه بالامس جمالها ودنيا العضلات التى تلقته من جديد دوامتها المهلكة ..

ومن السيرك كتب الى صديقه البعيد رسالة حزينة كأنها صيحة الغريق طالب النجدة ، حاول أن يصور له فيها وحشته بعيدا عن وطنه الروحى الذى أنفق فيه خير أيام حياته ، وكيف بلغ من ضيقه بعمله واعراضه عنه أن صار زملاؤه مجمعين على أنه قد بلغ سن العجز والفشل ، وانه لترتعد روحه كلما تصور أن هـــذا الحال يمكن أن يستمر أعواما ، هو الذى يتعالى الان على قوى البدن منذ كشف له عن نعيم الروح وجنة الفكر .. وظل ينتظر الرد أياما وأسابيع ، فلما يئس منه صار يخيل اليه فى بعض الليالى أن الصداقة الجميلة التى ربطته حينا من الزمن بالكاتب الكبير لم تكن غير حلم نضرت السماء به أحلامه ، وان تلك الدنيا الطيبة لا وجود لها ، وراء نطاق خيـاله المحموم ، فى دنيا الحقيقة..

وتعلم فى تلك الفترة من حياته فنا جديدا هو فن تنظيم أحـلامه والسيطرة عليها ، فهو قبل أن ينام يشكل رغبته ويلـــون فكره ويستحضر الصور التى يريدها ويبغى أن ينعم فى الحلم بها ، بيت الصديق وكتبه وموسيقاه وطفلته وامرأته الجميلة الخائنة .. ثـم جاءه الرد اخر الامر فقرأه فى لهفة ، ثم أعاد قراءته على مهل ، ورقص قلبه لتحية «مارلين » وقبلة « مارجو » ثم انتفض بالفرح عنـدما قرأ ان أصدقاءه القدماء فى حاجة اليه ، فهم يسألونه أن يستأذن أصحاب السيرك فى أجازة طويلة ، لان الخبراء أجمعوا على أنه هو خير من يقوم بدور « بريبون » فى المسرحية الجديدة عند عرضها فى المسرح !

ولم تمض ساعة حتى كان يضع حقيبته أمام باب « جان » ويدخل على زميله ليودعه قبل السفر ، لكن الشاب لم يكد يسمع أن القزم

قد فسخ عقده ليهجر «المهنة » ويغادر المدينة حتى انتفض قائما فى سريره وهو يرمى زميله الضئيل بالجنون .. أهكذا ، فى لحظة ، يبيع جهد السنين وعشرة العمر ؟! . وماذا يصنع وحده وهما فى عملهما وحدة متكاملة ؟ .. كانا دائما هكذا : الطويل والقصير ، العمـــلاق والقزم ! .. « تمرة » متكاملة !. انها لنذالة لم يكن يتوقعها ممن دربه واحتضنه وأحسن اليه وصنع منه لاعبا مرموقا ! . نذالة وخيانة .. وأين يريد السيد المحترم أن يذهب ؟. هه ؟ أين ؟ !. الى المسرح ؟! هكذا ينقلب بين يوم وليلة ممثلا ؟!. يالك من حيوان مهبول ! .. الا تخجل من جسمك المشوه !. أتذهب تعرضه على خشبة المسرح وكأنها لاينقصها سوى أجمل الفتيان من هذا الطراز النادر ! .

وفى صبر استمع القزم الى ثورة زميله الذى طالما علمه بهلوانياته الاولى وضربه وركله ومسح دموعه وشاركه النوم فى فراش واحد ، فلما انتهى من كلماته الجارحة جلس الى جانبه وقال له فى هدوء انه سئم هذه الحياة المهينة التى يعرض فيهـا على الناس مع فصـائل الحيوان النادرة .. ان نظرات الناس تغوص فى لحمه كالنصال ،وكم لعن أمه وبصق على ذكرى أبيه ! . انه لم يعد يطيق هذا ! . لم يعد يطيقه!

ــ لكن .. يا « يولا » . المسرح ؟ !. انت ؟!

ــ انا ! . وماذا تعرف انت عنى بعد كل حياتنا المشتركة الطويلة ؟. لا شىء ! . هل كانت أمك تبيع نفسها كل ليلة لعشيق جديد ؟ . هل كان صبية الشارع الذى نشأت فيه يصمتون كلما مر بهم طيفـك القبيح المنفر ؟ . لقد كنت دائما وحيدا .. اما أنت يامحبوب البنات فلم يحدث لك أن نظرت اليك فتاة صغيرة جميلة كالزهرة ثم قالت لك اذهب فأنت تملؤنى رعبا ! . لقد مزع الناس هنا روحى على أظفارهم، اما انت فقد كنت تضربنى لتدرب عضلاتى ولكنك نسيت دائما انى مثلك كائن انسانى ولست تمساحا ولا ثعبانا .. وأنت تعرف كل عضلة من عضلاتى لكنك لم تقف على فكرة واحدة من أفكارى .. هنـاك عالم تجهله انت لا يقوم على الحركات البارعة والعضـلات المشدودة . وهناك يد رحيمة امتدت ففتحت لى باب ذلك العالم .. بالفهم .. بالمحبة .. والى ذلك العالم انا عائد

وبعد أيام بدأت المراجعات فعجب المؤلف والمخرج والممثلون لمهرج السيرك كيف يسبح بهذه السهولة المعجزة وهذه الطلاقة فى تيـار المسرحية ..

أسعفته فطرته فترك نفسه تتفتح بكل أعماقها وتجاربها ، فى نشوة تلك الحمى العذبة العنيفة التى يعيش فيها أهل المسرح ..

وأهل المسرح أهل أريحية ، فلم يبدلهم الكائن العجيب الوافد من السيرك مضحكا ولا غريبا ، هم الذين يعرضون على الناس من فوق خشبة المسرح صورا من الانسانية مقنعة بألف قنـاع .. وزودوه بنصائحهم وسندوه بخبرتهم ودفعوه وشكلوه ، ثم كفوا آخر الامر عن ذلك كله ، لان ماصار يخرجه هو من ذات نفسه أصبح له وحده نبرة الحقيقة الكاملة ..!

ووجدت الممثلة « أنييس سارتو » لذة كبيرة وهى تأخذه الى بيتها وتراجع معه هناك دورها ، فكان صوتها العميـق يلهب دمه ويدها العصبية ترجف قلبه ..

وارتفع الستار عن المسرحية الجديدة فظفرت بنجاح ضخم تحدثت به الصحف وهلل له النقاد ، وكان نجاح « يولا » فى دور « بريبون » باهرا ، اذ كان يعيش حياته نفسهـا ، فالتصق به الدور كأنه جلد جديد ..

لم يكن « بريبون » غير ذاته الحميمـة ، المفجعـة ، الشجـاعة المستوحدة ، المتقلصة ، المتشنجة ، ذاته التى طال صمتها ثم وجدت أخيرا من يعطيها كلمتها لتقولها ..

وفوق خشبة المسرح كان « بريبون » و « يولا » يصيران شخصا واحدا ، اما فى الحياة العادية فقد طرأ على شخصية القزم بعد نجاحه الفذ تحول غريب اثار الدهشة والسخرية .. لقد وجد نفسه بين رجال ونساء من أهل الفن يحبونه فى بوهيمية كريمة ويعاملونه كزميل وصديق ، واذا به يحطم أغلال الكبت كلها دفعة واحدة !.

تأنق ، وتعطر ، وتكلم فى الكواليس فى فلسفة الفن ، وغشى المطاعم والمقاهى ، وروى ذكريات السيرك ، وعقد على صـدره ربطة عنق حمراء .. وأكثر من هذا ، اشترى لـ « مارلين » باقات الورد ، وتنهدا رنة ضحكتها وشذا عطرها كافيان لسعادته .. يحبها ويحب

اللون الذى تفضله والكلمة التى ترضيها ، ويحب حركتهـــا فى عقص خصلة من شعرها حول اصبعها ! .

ولقد تغير وتحول وتبدل وكان نجاحه على المسرح فاتحة عهد جديد عجيب فى حياته ، فقد أشادت الصحف بذكره ونشرت صوره ، وأقيمت له حفلات الشاى الانيقة ، كما أعلن الرسام ــ عاشق « مارلين » الاخر! ــ انه سيخلده فى لوحة تحمل عنوان « القزم والاميرة » يظهر فيها مع « مارلين » نفسها .. وصار الناس يهمسون باسمه اذا مر فى الطريق ويبتسمون له .. وعرفت صاحبة البنسيون الذى يقيم باحدى غرفه كيف تثير غيرة جاراتها وصديقاتها بما روت عنه من عجيب القصص ، حتى لقد خيلّ له انه يمشى على السحاب فى عالم مسحور !

واشترى لنفسه مجموعة غريبة من ربطات العنـــق ذات الالوان الصارخة الفاقعة ، وفى الايام المشرقة اللطيفة ركب الخيـــــل مع « مارلين » او قصد ميدان السباق مع علية القوم !

تغير وتبدل ، وشوهد أيضا على مقاعد البارات العالية ! ..

وأصبح له من ينمقّ له أظافره ، وصار من كان يوما ما انسانا خجولا منطويا على نفسه طاووسا غاية جهده أن يعرض على الناس نجاحه !

***

ومرت ليالى المجد مرور الحلم ..

وهبت على المدينة أنفاس الصيف وأوشك الموســم المسرحى أن ينتهى ، وجعلت « الطبقة العالية » تحزم حقائبها وترحل الى المصايف والحمامات ، وسافرت « مارلين » وزوجها وصديقها الرسام ، وتركت « أنييس سارتو » دورها لبديلتها ولاذت بمصحة فى الجبل تستشفى فى سكونها من داء المورفين ..

ثم جاء مساء اليوم الاول من يوليو فأسدل الستار الاخير على مجد تألق شهرا ، وحزم « يولا » حقائبه هو الاخر وتحسس نقوده فى جيبه وانطلق الى حيث يعلم أن السادة والسيدات قد سبقوه .. مدينـــة صغيرة من مدن الحمامات اتخذها « أهل الفن » جنة صيف بين شاطىء بحيرة وسفح جبل ..

وفى المصيف الرشيق العامر بالوجهاء وأهل الفنون ظهر فى زى فلاح من فلاحى الاقليم ، امعانا منه فى التظرف ومحاكاة الظرفاء ، فبدأ فى

ذلك الزى كأنه القرد المدرب واثار به سخرية الناس .. ثم هبط الى الماء مع غيره من الناس وسبح واستمتع .. ونزل الى الميدان فى ملعبه التنس الملحق بالفندق غير هياب .. واذا غنى القوم كان صوته أعلى الاصوات ! .

وكان فى قطيع المترفين شاب تدعوه النساء « بوبى » ويدللن فيه الفتى الوسيم الفارغ ، فلما لمس « يولا » اعجاب النساء بتلك التحفة اتخذ منها أنموذجا يقلده فى ملبسه ومرحه ودعاباته التى ينثرها على الحسان ! . وعندما جاءت المثلة « أنييس سارتو » من المصحة لتبحث عن السرور واللذة مع الباحثين والباحثات صار القزم يتخذ مجلسه على مائدة العشاء بينها وبين زوجة الكاتب ، نشوان بين العطرين .. وكانت « مارلين » قد شغفها حبا ذلك الـ « بوبى » وشغلها عن الرسام وعن زوجها وقزمه ، فصار « يولا » يرى الحب فى عينيها لذلك الجديد الموعود وهو يتحسر .. لكن عين امرأة أخرى كانت ترقبه ، هى عين المثلة التى مست عنقه بذراعها اخر الليل ونهضت وهى تدعوه بشكل علنى :

ـ تعال يا « بريبون » ! .

انها فنانة ترتجف تحتها خشبات المسارح وتصفق لها حتما ربات الفنون على قممها الشامخة ، ولكنها قبل ذلك امرأة تعيش وهى لا تنتظر من حياتها لذة أكبر من متاع حريف ، وعندها من فرط الادمان للمخدر فضول بارد من ميادين التجربة والانفعال .. والكل يعرف ان أحسن ما عندها فى بيتها من تحف تمثال صنم على هيئة قناع مكسيكى قديم ، هو فى حقيقته جمجمة رجل حقيقية بأسنان طويلة ، وكثيرا ماترفع المثلة تلك الجمجمة من خصلة الشعر التى أبقى عليها الزمن فى قمتها وتدنيها من شفتيها وتطبع على أسنانها العارية قبلات كلها نشوة .. وهيأة القزم الشاذة فتنت فى تلك الليلة خيالها ، ونظرتها المتحسسة كانت تتأمل عرض كتفيه وهو ينهض عن المائدة ويتبعها فى ضوء القمر الى زورق الكاتب المنتظر فى المرساة القريبة ..

وفى الزورق قالت له وهى تسترخى مستريحة :

ـ تناول المجدافين واخرج بنا الى عرض البحيرة !

وعندما صدم الزورق طرف البحيرة البعيد حيث يقوم بيت الفنانة السكرى قالت له مرة اخرى :

ــ تعال ، يا « بريبون » ! ..

***

كان الصيف اخر عهده بذلك الحــلم الذى دام مادام الصيف ثم كانت اليقظة المفجعة ! .

هو الان على الرصيف ، فى بلدته القديمة ، وهذا هو الشارع الضيق الوضيع لا تزال ترتفع فيه ضجة الصبية ، والليل فى جنباته أسود ، وبعيدا عن الضباب ، مصباح واحد يرسل نوره المريض الحزين كأنه فى عتمة الضباب نفثة قلب طعين ..

انفض سامر الصيف الجميل وعاد القوم الى المدائن ليبدءوا فترة جديدة من النشاط الاجتماعى والفكرى ، وزار القزم صديقه الكاتب فلقيه فى هذه المرة فى فتور ونصحه أن يعود الى السيرك الذى جاء منه ، فلا أدوار له فى انتاجه الجديد ، ثم ودعه فى غير احتفال فغادر بيته فى ذهول ، وكان آخر ما سمعه فى بهو ذلك البيت صدى ضحكة « مارلين » فى صالونها .. عالم كامل ينتزع من حياته فى قسوة !

وهل السيرك أرحم قلبا من المسرح ؟..

هو ايضا رفض ان يلتقط ذلك المارق العجوز الذى خوت جيوبه من نفاية ماله القليل ، فدفع آخر مابقى له ثمنا لتذكرة فى قطار حمله الى مسقط رأسه ..

ودخل مدينته متعبا جائعا كما خرج منها ..

لقد قالوا له فى السيرك ان الاقزام يبلغون سن الشيخوخة فى عمره ويعتزلون العمل ، فماذا هو فاعل ؟ ..

وقادته قدماه الى حيه القديم الذى يعرف كل حجر من أحجاره ، ووقف آخر الامر عند عتبة البيت القديم والدرجات العتيقة الهابطة الى الطابق التحتى ، وتعرفت يده المرتجفة الى مقبض الباب فدفعه وصعد فى السلم الرطب الى الدور الاول ..

ودق الجرس وانتظر أن تفتح له الباب يد عجفــاء معروقة ، يد صديقة كانت فى الزمان الخالى تجود عليه بحنانها ..

ومرت لحظة كأنها الدهر ثم سمع وراء الباب وقع خطوات مرحة :

ثم برز له وجه طفلة حسناء لم تكد تلمح طلعته حتى ارتدت فى خوف .. ونزع الشيء الصغير المسكين قبعته وسألها :

ــ ألا تزال الانسة « برتشام » تقيم هنا ؟

نفت الطفلة الخائفة ذلك ، فعاد يسألها :

ــ أليس هنا أى خبر عن عنوانها الجديد ؟

فكان الرد فى هذه المرة أن ردت اليد الصغيرة الباب ..

وقبل أن يبلغ آخر السلم سمع من ينادى ..

وبرزت له الطفلة فدفعت اليه بربطة صغيرة قبل أن تولى فرارا ..

ووقف على الدرجة يتأمل ما فى يده ، ثم فتح الورقة فتكشفت له عن طعام ..

ومن خلال الدموع أضاءت وجهه ابتسامة ، ومشى الى المصباح الذى ينفث نوره المريض فى الضباب وهو يذكر أباه ويتأمل السماء ..

ولم تكن النجوم بادية من وراء الضباب ، ولكنـــه رآها .. رأى النجوم ، فكان ذلك آخر أحلامه .

انتهت



اشترك فى روايات الهلال

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقيـــة :	السيد نخلة سكاف
جـــــدة :	السيد هاشم بن على نحاس ص . ب ٤٩٣
البحـــرين :	السيد مؤيد احمد المؤيد صندوق البريد رقم ٢١
البــرازيل :	Sr. Miguel Maccul Cury, R. 25 de Março, 994, Caixa Postal 7406 Sao Paulo, BRAZIL
سـنغافورة :	Ahmed Bin Mohammed Bin Samit Almaktab Attijari Asshargi, P.O. Box 2205 SINGAPORE
انجـلترا :	The Arabic Publications Distribution Bureau, 7, Bishopthorpe Road London S E. 26, ENGLAND

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

هذه الرواية

يعتبر الكثيرون من النقاد رواية « جرمينال» قمة أعمال الروائى العالمى « اميل زولا » .. فلأول مرة فى تاريخ الادب - ومن تصوير كاتب جمهورى لا اشتراكى ، فقد كان « زولا » فى صميمه جمهوريا معتدلا - تصدر قصة ليس البطل فيها فردا أو أفرادا وانما بطل جماعى هو جمهور عمال منجم ليصور المؤلف - بقلمه الذى لا يجارى - [illegible] وعلى أمثالهم من طبقـ[illegible] بالحديد المحمى مجتمعه [illegible] الظلم ، مما يجعل ((جرمينا[illegible] الادب الفرنسى كما أنه [illegible] نفسه ..



المؤلف

* يعد « زولا » امام المدرسة الطبيعية فى الآداب ، وامام المدافعين عن العدالة

* يعتبر « زولا » من أشهر الروائيين الفرنسيين فى القرن التاسع عشر

* تمتاز قصصه بدقة التحليل ، وحبكة الموضوع ، ووصف البيئة الاجتماعية

* من درره القصصية العالميه قصة « نانا » التى ترجمناها فى روايات الهلال باسم « غانية باريس » عام ١٩٥٥ وقصة « تريزا » التى ترجمناها عام ١٩٦١

